ثورات مصر الحديثة

تأليف

محمد عثمان

http://gate.dar.elmarf.com

تصميم الغـلاف: أيمن القاضى

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع النظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ — فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ — mail: maaref@idsc.net.eg
http://gate.dar_elmarf.com

مقدمة

كانت الحملة الفرنسية هى بداية النهضة المصرية، وثورة القاهرة الأولى والثانية قادها الأزهر ضد الوجود الفرنسى.

أصبح للأزهر القوة الفعلية فى الشارع المصرى (١٨٠٥م)، واختار محمد على ليكون حاكما بدلا من الحاكم التركى المتواجد أصلا على أن يحقق لشيوخ الأزهر بعض المطالب.

المعركة بين الحاكم والمماليك انتهت بمذبحة القلعة ليكون هناك حاكم واحد فى مصر بعدما نفى شيوخ الأزهر وألغى نفوذهم. استغرقت هذه الفترة خمس سنوات بدأ بعدها محمد على تحديث مصر وبدأ مشروعه العلمانى، قانون حرية العبادات وإرسال البعثات واستقدام الجاليات الأجنبية.

خاض إبراهيم حروبا فى الحجاز وأفريقيا، وفتوحات تؤكد قدرة الجيش المصرى على الانضباط وروح القتال.

لم يكن تحديد قوة محمد على هزيمة له، ولكنها فترة التقاط أنفاس لتهضم مصر ثمار التقدم العلمى والفكر النهضوى الذى برزت معالمه فى حكم الخديو إسماعيل من شق قناة السويس

وخط السكك الحديدية والبعثات العلمية والفتوحات فى جنوب البلاد حتى الصومال ليس بالشىء اليسير؛ إذ إن تقدم مصر الأفريقى فى عهد إسماعيل مازالت آثاره باقية حتى الآن.

كان عزل إسماعيل بداية الخطة التآمرية، والسبب ارتباك مصر الاقتصادى وديونها بعد فتح قناة السويس.

إن أى تقدم تحرزه أى دولة يكون مطمعا لدول أخرى، بمعنى أن مصر كانت سلة غذاء الإمبراطورية الرومانية.

وبعد الفتح العربى كانت مصر دولة يتمنى أن يحكمها من يرضى عنه الخليفة لأن بها الثروات الغذائية وشعبها مسالم يحب مباهج الحياة، وقناة السويس ممر استراتيجى لا يمكن أن يغيب عن أعين إنجلترا، صحيح أن فرنسا صاحبة الحملة الفرنسية والشركة الفرنسية هى التى حفرت القناة ولكن مصالح إنجلترا فى الهند لاتقبل المساومة.

الفرصة فى توفيق الذى ورث الحكم وأيضا الديون والمشاكل، والجيش المصرى الذى أصبح داخله الفلاح يترقى منه، وعرابى الذى جاء بثورته والمطالبة بالترقى وغيره كانت البداية لاحتلال مصر.

إن لم تكن ثورة عرابى أو كما يقال هوجة عرابى، لصارت مصر للأمام بخطى الديمقراطية؛ حيث إن البرلمان قد بدأ، والتعليم

ينتشـــر والحداثة أصبحت مقبولة لدى الطبقات العامة، والاتجاه ناحية التقدم العلمى الأوروبى فى الحكم والتعليم والصحة وخاصة بوجود الوضع الاســـتراتيجى المهم فى القناة واســـتقدام الأجانب للعمل والإقامة مؤشر جيد للتقدم الثقافى والحياتى، فآثار التقدم من سكك حديد ورى وامتداد الحدود المصرية فى أعماق إفريقيا، صنعت من مصر قوة ستزداد مع الأيام، لكن الثورة وإيجاد العذر والســـبب لغدر توفيق والشراكســـة حوله، ليتم هدم الإســـكندرية وقتل الجيش المصرى وهزيمة مصر واحتلالها من إنجلترا بمعاونة الخديو ورجاله، إذلالا للروح الوطنية المصرية.

وانصـــراف النخبة فى البحث عن مخـــرج من الاحتلال بدلا من البحـــوث العلمية والصحية والنهضة العلمية التى ســـتجلب الحياة السياسية السليمة بعيدا عن قلاقل المنطقة؛ ستؤدى لتنعم مصر بدخل القناة والقطن والتعليم الذى تتميز به على المنطقة مما سيجبر باقى الدول من السودان وليبيا والحجاز حتى تركيا على الاســـتعانة بمصر بقوتها العلمية والسياسية وتأثيرها فى العالم لما تملك من منطقة استراتيجية، لكن ثورة عرابى عجلت بالاحتلال والذى كان ليس بعيدا عن مصر.

* * *

قررت القبائل العربية بقيادة الشريف حسين طرد الأتراك من الحجاز وبالتالى من الشام والعراق والانحياز لإنجلترا فى الحرب العالمية الأولى، فانتهت بمأساة تآمرية:

١ – تقسيم الدول العربية فيما بينها أى تقسيم المصالح بين إنجلترا وفرنسا ووضع حدود بين الدول العربية وتأكيد انقسامها، حتى إن الدول العربية فى الوقت الحالى فى ترسيم حدودها تعود لتقسيم (سايكس بيكو)، وأصبحت مصر وفلسطين تحت الانتداب الإنجليزى الذى حددته إنجلترا فى عام ١٩١٤م.

٢ – خروج تركيا من فلسطين سمح باستقدام المهاجرين اليهود إلى فلسطين وبالتالى قسمت الدول العربية بكيان مازالت تعانى منه حتى الآن. كما تم تأكيد حدود مصر الشمالية بحدود فلسطين التى تمثلها إنجلترا، والسودان بالحكم المشترك بين مصر وإنجلترا للسودان. فبعد احتلال مصر بمساعدة الخديو توفيق انطلقت إنجلترا فى السودان بالتعاون مع مصر لتأكيد احتلال مصر والسودان تحت الحماية البريطانية..

(احتلت إنجلترا مصر عام ١٨٨٢م ليدخل بعدها بعام فقط الجيش المصرى والإنجليزى فى معركة ١٨٨٣م «شكنوه» ليدمر معظم الجنود المصريين فى معاركه مع المهربين بالسودان).

سعد زغلول زوج ابنة مصطفى فهمى رئيس الوزراء – ذى الأصل التركى – لمدة ١٤ عاما وصديق اللورد كرومر الحاكم الفعلى لمصر.. ولم يستطع السلطان التركى (حفيد محمد على) عباس حلمى طرد الإنجليز.. لأنهم تمكنوا من بسط قوتهم العسكرية، ثم نفى وجاء بعده السلطان حسين وبعده الملك فؤاد الذى كان مجندا ويحارب مع الجيش الإيطالى فى أثيوبيا فى شبابه.

مصر تتحدث عن ثورة ١٩ وكأنها نواة الاستقلال، ولكنها كانت تمثيل لزمن تعميق السيطرة على مصر.

لم يكن يهم بعد اتفاق إنجلترا وفرنسا القوتين الاستعماريتين فى العالم تمركز كل هذه القوات فى المنطقة فالمُهم هو السيطرة، الشركة الفرنسية لقناة السويس والقاعدة الإنجليزية فى قناة السويس.

مصر دولة متسقة وإعداد القواعد الإنجليزية، والحاكم العسكرى الإنجليزى سير ستانلى ستاك يُغتال بحركة غير محسوبة عام ١٩٢٤م لتقرر إنجلترا إهانة مصر:

١ – إخراجها من السودان.

٢ – دفع مليون جنيه تعويض.

٣ – عودة الجيش الإنجليزى.

هكذا انتهت ثورة عرابى باستقدام الإنجليز، وثورة ١٩١٩م بإخراج مصر من السودان.

إن مُباحثات صدقى.. بيفين، بعد الحرب العالمية الثانية التى انتهت بأن تكون مصر والسودان دولة واحدة هى أفضل الحلول السلمية فى ذلك الوقت، كانت معاهدة ٣٦ ومباحثات الاستقلال التام تصطدم باحتدام موقف حكم السودان.

إن النظرة الاستراتيجية العميقة لحماية مصر هى السودان سواء بالتفاهم أم الحكم الذاتى الديمقراطى أو الغطاء الاقتصادى أو أى وضع سياسى هو عدم التخلى عن السودان. ساسة مصر مُدركون ذلك وناضلوا من أجل بقاء السودان مُتصلة بمصر.

إن استعمال البساطة والسذاجة فى صنع الجامعة العربية تحت السيطرة الإنجليزية عمقت التواجد الأجنبى فى العراق الذى كان ومازال تحت الاحتلال الإنجليزى، وفرنسا فى الشام، وإنجلترا فى مصر وفلسطين، وإن حدث اتفاقية دفاع عربى مُشترك سنة ١٩٤٥م بعد نشأة الجامعة العربية هو التمهيد الأساسى للخطوة التآمرية التالية لسقوط الخلافة التركية وإنشاء أتاتورك «دولة علمانية تركية» وتواجد البديل المصرى فى جماعة الإخوان لتلتف حولها أفئدة الشعوب التى تأثرت بغياب الخلافة

الإسلامية فى تركيا.. صنع قوة سياسية توجه السياسة المصرية وتتدخل فى الحكم حتى جاء قرار تقسيم فلسطين من الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧م بين العرب واليهود فى فلسطين.

إنجلترا تعلم العقلية العربية ومتدخلة فى الشؤون السياسية والعقائدية، ومدركة لسيطرة الفكر الدينى الجهادى وتعلم جيدا أن اليهود يشكلون فرقة عسكرية مع الجيش البريطانى أكثر تدريبا، ومدركة أنها ستتنازل لهم عن عتادها فى فلسطين ومدركة أن فرصة العمر لإسرائيل فى قسمة الدول العربية وخلق الانقسام العربى فى منطقة مهمة من الشرق الأوسط بين الدول وبعضها.

اليهود كانوا يمثلون قوة اقتصادية فى مصر ومنهم من يندمج فى النسيج المصرى، وإسرائيل تريد تحويل العرب اليهود من العراق ومصر واليمن وشمال إفريقيا لداخلها.

أسعدها إعلان الحرب بسبب مزايدة الإخوان وإرسالهم القوات الجهادية إلى فلسطين ولم يكن موقف الحكومة المصرية بقيادة النقراشى وقتها موافقا على الحرب فى فلسطين.

كان بمصر يهود مصريون يشاركون المصريين حياتهم فى العمل الاقتصادى والسياسى مثال لذلك: (قطاوى باشا من زعماء ثورة ١٩١٩م) ورئيس الحزب الشيوعى المصرى كوريل (يهودى)

أهـدى فيما بعد منزله بالزمالك للثورة الجزائرية (السـفارة الآن) والعاملون بالفن كثيرون.

إن تقسـيم فلسـطين حسـب قرار الأمم المتحدة فى ١٩٤٧م كان فـى صالح القضية الفلسـطينية. المُزايدة الجهادية، والتهور والحماس دون حساب أدى للاندفاع إلى معارك صعبة.

عارض النقراشـى رئيس الوزراء ولكنه أرسل القوات المصرية فى ١٢ مايـو ١٩٤٨م دون موافقة البرلمـان بصفته القائد الأعلى للقوات المسلحة فاضطر النقراشى إلى الموافقة ودخول مصر المعركة بقوات غير منظمة أو مسلحة.

برغم ذلك تقدم الجيش المصرى لتحدث الفتنة بإخلاء الجيش المصرى من الضباط الإخوان وكان هناك أحمد عبد العزيز الضابط المصرى الذى كان يحارب باسـم المجاهديـن ويغتال فيما بعد، وتعلـن الهدنة بعدما تقدمـت القوات العربية جزئيا، لتسـتعد إسرائيل بقوات أقوى وتحتل اللد والرملة وباقى فلسطين وقرية أم الرشراش المصرية على خليج العقبة (إيلات) والنقب ولم يبق غير شـريط حدودى ١٤ × ٤٠ (غـزة) والضفة الغربية لنهر الأردن.. وتقام الهدنة التى تصبح النزيف المستمر للقوات المصرية.. وخاصة

أن قوات الإنجليز فى قناة السويس، عين إسرائيل على المصريين اليهود وعينها على قناة السويس وعينها على القوة العسكرية لتنفذ أى مخطط قادم سواء من الاتحاد السوفييتى الشيوعى أم قوات حلف الأطلنطى الأمريكية.

صنعت المُستعمرات بالطريقة الشيوعية وصنع الدستور الديمقراطى بالطريقة الغربية.

واستعدت المشاعر العقائدية للشعوب العربية ليتم تفجير حارة اليهود فى مصر وقتل اليهود فى الطرق ليخرج من العراق ١٢٠٠٠٠ يهودى و ٧٠٠٠٠ مصرى من مصر.

قامت ثورة ١٩٥٢م وغايتها تحقيق الاستقلال وقائدها الظاهر محمد نجيب نصف السودانى وأصبح للسودان حاكم فى مصر بدلا من الملك، ملك مصر والسودان (فاروق).

الثورة تبحث عن القوة فكان أول مبادئها جيش مصرى وطنى قوى، لم تكن الوحدة مع السودان من أولويات الثورة المصرية، كان توجهها عربى قومى لكى تتم المؤامرة، فالدول العربية معظمها ملكية.. ولا ينوى الحكام التخلى عن عروشهم.

بدلا من أن تكون القاهرة مثالا للديمقراطية والعلم والحياة البرلمانية السليمة لتحتذى بها الدول العربية وبالتالى يصبحون

قــوة علمية اقتصادية سياســية واحدة تتفق مــع ميثاق الجامعة العربيــة، بــدأت الدول العربيــة تتوجس من بعضهــا البعض، فالقوميــة العربية والبعث يعنى أن تتحول الدول العربية إلى دول جمهورية، وهنا تم صنع التناقض برغم ترحيب السعودية ومصر بعضهم ببعض ولكن الانقسام أصبح أكيدا.

بدلا من أن يتوجه الناخب الســودانى ليؤكد تمسكه بالحكم المصرى الأقــوى غير الفعال وتكون مصر والســودان دولة واحدة (أكبر دولة فى إفريقيا وأكبر كيان فى الشــرق الأوســط والمنطقة) تملك القناة والامتداد الجغرافى وتطل على البحر الأحمر والأبيض والمحيط، ويملك الثروات والعلماء والعمل والمشــاريع، أصبحت الثورة عبئا على الوحدة بعدما خرج محمد نجيب من الحكم.

لو ظل محمد نجيب فى الحكم بعد الاستفتاء السودانى وكان فى صــالح الوحدة لكان أفضــل لمصر والســودان، الآن لو خرج الإخوان إلى جنوب الســودان يجاهدون فى نشر الدعوة الإسلامية السمحة والأخلاق العربية الراقية لما ضاعت جنوبها.

لو لم يســتمع نجيب لكلام الوفد وبعض الضباط الشــيوعيين بعودة الحياة السياســية (١٩٥٤م – أزمــة مارس) قبل الجلاء، لمــا تم انفصال الســودان، لو لم يُســرع عبد الناصــر بإعلانه عن

شـخصيته كقائد الانقلاب العسـكرى والمحرك للضباط الأحرار وتوجهه القومى، لما سقط السودان.

لم يكن سقوط السودان هو المصيبة الكبرى ولكن اتفاقية الجلاء التى ساهمت فى قلب الإخوان على ناصر ومحاولة اغتياله والزج بهـم فى المعتقلات هم والشـيوعيون لأنه فى هذه الحالة لم يكن لمصر دسـتور أو توجه سياسـى، حينما خرج الدسـتور للوجود فـى فبراير ١٩٥٦م وأكـد أن مصر دولة قوميـة وتوجهها قومى عربـى والاحتلال الإنجليزى يغادر البلاد، كانت الخطوة التالية محسوبة من الجهات المُراقبة.

خـرج اليهود من مصر وأصبح لإسـرائيل كيـان يهدد مصر، ومصـر تبحث عن قوة عسـكرية تعادل بها القـوة المتربصة على حدودها وتعلن رفضها لوجود إسرائيل التى طردت أهل فلسطين واسـتولت على أرضهم وانتصرت على سبع من الجيوش العربية مرة واحدة فى جرح ثأرى صعب النسيان.

لم تكن بعد قادرة على صنع سلام على الجبهة الشرقية لأنها أجلـت الإنجليز ورفضـت الدخول فى أحـلاف وانضمت لدول عـدم الانحياز، هو الفكر التآمرى المتربص بالحرب القادمة لتفقد مصـر أى مكسـب وينهار الاقتصاد الحر الـذى بنى، وتم جنى ثماره فى التصنيع والتعليم والجيش والديمقراطية برغم فساد الملك

وانحراف الوزراء، ولكن الوضع الاقتصادى لم يكن منهارا وحركة الضبـاط باحثة عـن التقدم التنموى الذى أقلق إسـرائيل والقوى المراقبة لمصر، ضباط صغار العمر وقليلى الخبرة السياسية يُنفذون سياسة وطنية قومية بمبادئ جديدة:

١ – جيش وطنى قوى.

٢ – القضاء علىتدخل رأس المال فى الحكم والفساد.

٣ – القضاء على الإقطاع والرجعية.

٤ – قيام حياة ديمقراطية سليمة.

هـذه الشـعارات تُلهب الجماهير، ولكـن الواقع أن الحركة الديمقراطيـة لابد لها من وعى جماهيرى متأكد من أنه سـينال حقه الشـرعى فى سـيادة القانـون والأمان بدسـتور ثابت قوى وأمن تنفذه وشـعب مؤمن به، وحكومة تمثل الشعب فى أدائها يحاسبها مجلس الشعب (البرلمان) المنتخب الحر.

الأحزاب السياسـية الضعيفة وسيطرة رأس المال عليها وشبح الأمية العالية وطوائف الشـعب غير المتناسـقة من اتساع الفروق الطبقية أوجد حل عسـكرة الدولة، والعقيدة الدينية المتغلبة فى جماعة الإخـوان تعترض الحكم العسـكرى بالفكـر العقائدى، لتصطدم القوتان حتى يومنا هذا، بين العسكر والإخوان، وتضيع

أصـوات النخبة والمفكرين والرأى العـام ليصبح أعلى صوت هو الذى يملك السلطة، وليس القانون والدستور والنظام.

توج الحلم العسكرى بقيادة جمال عبد الناصر وفكره السياسى المتغـير من هيئة التحرير إلى الاتحاد القومى (شمولى) إلى الاتحاد الإشـتراكى (شمولى) وخطة وطنية للتصنيـع والتعليم انقلبت إلى التأميم وخطة قوميـة أدت إلى الوحدة العربية وحرب اليمن بين قبائل اليمن الموالية للإمام المخلوع بدعم من السـعودية وأمريكا، وقومى الجمهورية مدعومة من مصر والقوى الاشتراكية وأصبحت حـرب بـين التقـدم والرجعية من وجهـة نظر مصـر، والكفار والمسـلمين من وجهة نظر السـعودية تؤازرها فيها قوى الإخوان المسـلمين وتعزز مصر قوى القوميين فى سـوريا والعراق والجزائر وبعدها ليبيا، وينقسـم العرب بين ملكيين وجمهوريين. انقسمت الدول العربية لتنتهى المواجهة بينهم على أرض سيناء والجولان وفلسـطين فى مؤامرة سهلة بسـيطة لم تدركها القيادة السياسية والعسـكرية لتكون النهاية الفعلية لثـورة ٢٣ يوليو التى صنعت هيكلا جديدا من السياسـة، توجه قومـى انتهى بهزيمة دائمة ومسـتقرة لتربص القوى الخارجية به واشـتراكية وليدة سقطت

لعدم وعى وإدراك المواطن لها، فلم يفهم معنى أن السيادة للشعب علـى أدوات الإنتاج أو مكاسـب العمـال والفلاحين فى البرلمان ٥٠٪، أو التعليم للبناء.

أصبحت الاشتراكية مالا سهل المنال حتى لو بالسرقة وحرق الشـركة بعدها بالنار أو الإغلاق والمكاسـب المادية أسرع وأوفر، والنفاق السياسـى أفضل من النضال السياسـى والتعليم للمكسب المادى وليس للبناء والتعمير.

حاول جمال تدارك الموقف العسكرى بحرب الاستنزاف وإعادة بناء الجيش، فى ١٩٥٦م انسـحبت مصر من سـيناء فاسـتولت إسرائيل على العتاد العسـكرى المصرى الكبير وحطمت إنجلترا وفرنسا الأسـلحة المصرية والطائرات والجيش وضربت بورسعيد وحرقتهـا، وخرجت الجالية اليهودية مـن مصر ومعها أموالها أو أغلقت نشاطها الاقتصادى وكان بمصر ٣٠٠,٠٠٠ أجنبى مقيم فى جاليات يونانية وإيطالية وآرمانية وشـوام وغيرهم يساهمون فى التنمية الاقتصادية والتعليمية والفنية.

لجأت مصر لتمصير البنوك والاعتماد على الذات وخرج منها الاستثمار الأجنبى والرأسمال المحرك لقوى الاقتصاد، تم توزيع الأراضـى على الفلاح فتفتت الرقعـة الزراعية التى بنيت عليها المبانى والمصانع المضرة بالبيئة، ولكن لا ينكر أن إصلاح الأراضى

الزراعية وتنمية الفلاح وتعليمه والوحدات الصحية أنقذت الفلاح المصرى من الهلاك الصحى والتعليمى.

أجهـزت حرب ١٩٦٧م على إنجازات ثـورة ١٩٥٢م؛ فلقد انهـارت كل أجهزة الدولـة وأصبحت كلها مُسـخرة من أجل استعادة الأرض المحتلة وسـكتت الأصوات السياسية بحيث لم يعد يُعلن غير (لاصوت يعلو على صوت المعركة).

بعدما سـقطت السـودان بعيدا عن مصر سقطت سيناء بتعالى إسرائيل بنغمة الأمان، لن تعود سيناء إلى مصر إلا بأمن إسرائيل، بمعنى أن تكون منزوعة السلاح، لن يكون هناك صلح فى الشرق الأوسـط إلا أن يحصل الفلسطينيون على الحكم الذاتى ولن يعود أى فلسطينى إلى وطنه أبدا.

هكذا كانت شروط إسـرائيل وهكذا قاومت مصر هذه الشروط وجـاء العرب فى قمة الخرطوم لتدفع السـعودية دعما لمصر ٦٠ مليـون دولار والكويت ٢٠ مليون وليبيا ٢٠ مليون دولار سـنويا علـى أن يكون شـعار الخرطوم لاتفاوض ولاصلح ولاسـلام، ولم تسـتطع مصر المقاومة وهكذا سـقطت مصر اقتصاديا وعسكريا، وحينمـا رحل جمال عبد الناصر قرر السـادات القبول بشـروط إسـرائيل ولكن بشكل منهجى صورى لايعرفه إلا المدرك للتحول السياسى فى المنطقة.

قامت ثورة ١٥ مايو ١٩٧١م بعد رحيل عبد الناصر بشهور قليلة لتؤكد فشل الثورة الناصرية والقضاء على كل ما آمنت به وحققته، اعتقال كل رجال الحكم الناصرى وتشويه عهده وحبس كل صاحب قلم أو رأى معارض، واستطاع بعد حرب منهجية:

١ – السلام مع إسرائيل والقبول بشروطها.

٢ – عودة الإقطاع والرأسمالية والقضاء على الاشتراكية.

٣ – عودة الإخوان المسلمين إلى الصدارة الاقتصادية والسياسية والقضاء على الناصرية والاشتراكية والعداء للملكية العربية والقومية العربية.

٤ – القضاء على أولوية التعليم فانخفض الاهتمام بالعلم لتسود الانتهازية الرأسمالية وإعلاء صوت المال على العلم.

٥ – القضاء على التنظيم السياسى (المتمثل فى الاتحاد الاشتراكى الشمولى) بعملية حزبية أخرى، أحزاب صورية مشوهة وحزب كبير يملك كل الصلاحيات السياسية.

٦ – إلغاء الفكر القومى بالقومية العربية واستبداله بالفكر العقائدى المطاط والمرجعية الدينية فى تخطيط لتسليم السلطة فيما بعد للقوى الدينية والعسكرية.

٧ – لم يكن اغتيال السادات إلا مرحلة أكيدة لتصادم القوى السياسية والاقتصادية فى عهد السادات.

٨ – حينما قامت انتفاضة شعبية ١٨، ١٩ يناير كانت بداية سقوط الحكم فعجل بالسلام ليؤكد الإنجاز، ولكن كامب ديفيد كانت مصيبة الحكم الذى دفع الشعب المصرى ثمنها وسيدفع الثمن، فلا سيطرة للجيش على سيناء، حدود مصرية عارية من القوات، ودولة غزة لا نشاط سياسى أو اقتصادى لها، فقط فكر شمولى يتعايش مع الهبات والمساعدات أى من يدفع يقبض الثمن مهما خلُصت النيات.

استسلمت مصر لفكرة الحكم الذاتى مع أنه إذلال يومى يتمثل فى المستوطنات وبنائها والحائط العازل وضرب المعارضة واعتقالها وحبسها وتوزيع المال والهبات على القيادات الفلسطينية مما يؤدى لنزاعها أو إفسادها.

سقطت مصر فى صراع الشرق الأوسط ولم ولن تخرج منه، حقبة مبارك لم تكن لاستكمال ثورة ١٩٥٢م أو حتى ١٩٧١م ولكنها كانت للإستيلاء على الحكم، فقط وإبقاء الحال كما هو عليه.

مصيبة كامب ديفيد لم يقاومها، وتم الاستسلام لشروط إسرائيل فى حرب ١٩٦٧م والمنهج بحرب ١٩٧٣م بانتصار وهمى لم يفرض المنتصر شروطه فى عملية غريبة أن يفرض

المنهزم على المنتصر نزع سلاحه وتحديد قواته وإغلاق التاريخ والجغرفيا من السياسة المصرية.

لم يستطع مبارك تغيير أى وضع واستمر فى الاستسلام لسيطرة رأس المال على الحكم والرضوخ لقوى الإخوان فى مواجهة تكتيكية هى أن يرفع راية الإسلام الوهمية أيضا، فى عملية استهلاكية غير واضحة المعالم هل هم متلازمون أو متضادون أو ممنهجون.

سقطت الدول الديمقراطية والدستورية فى عملية شكلية وهمية من سيطرة حزب واحد.

سقطت القوى العسكرية فى وهم آخر الحروب هى حرب ١٩٧٣م، سقطت القومية العربية فى حربها مع إيران ومؤامرة العراق والدخول فى حرب تحرير الكويت وتم قبض الثمن من أمريكا والخليج وحصلت مصر من الكويت على ٢٥ مليار دولار والسعودية ١٥ والإمارات ٢٠ و٤١ أسقطت من ديون مصر، فى عملية تبلغ ٥٠٠ مليار جنيه، وسكوت فاضح على أن مصر تبيع جيشها ومبادئها لتفتح باب التدخل الأجنبى، لتعانى العراق فيما بعد من الاحتلال وتسقط ليبيا أيضا فى الاحتلال مع أنهم من القوى القومية التى استضافت ملايين المصريين، ولكن مصر

التى كانت ملكية مثال للتعددية الحزبية وتستطيع قيادة المنطقة الملكيـة العربية للتجربة الديمقراطية تواجهـت معها فى قومية عربية مرفوضة للمصالح الأنانية الملكية وأصبح المواطن المصرى له كفيل فى العمل فى إهانة مرفوضة إنسانيا.

سقطت كل دواعى ثورة ١٩٥٢م والجيش القوى وفساد الحكم والاشـتراكية والوحـدة العربية وتدخل رأس المـال فى الحكم، سـقطت قوى ١٥ مايو لفسـاد الحكم السياسـى الساداتى الذى اسـتكمله دونا عن أى إرادة للتغيير من قبل حسنى مبارك الذى اعتمـد على النخبـة الاقتصادية الانتهازية فـى التعمير والعمل والبناء التى قد تدوم لفترة ولكن يقبلها التاريخ، لن يقبل اتفاقية كامـب ديفيد كما لـن يقبل الحكم الدينى فـى مصر. إن حركة ٢٥ يناير لم تسـتطع تغيير هيكل الحكم وبالتالى لم تصبح ثورة، وتعبـير الربيع العربى هو بداية النهاية للمنطقة العربية لتنقسـم من جديد دول المنطقة.

إن السـقوط المنهج لم يفاجئ أحدا وكأنهم يعلمون أن هذا هو المصير الذى كتب، وأكد أن سقوط صدام فى العراق سيتبعه سقوط مصر والسعودية وليبيا والسودان. إن سقوط مصر كان مصيبة أكبر من نكسـة ١٩٦٧م؛ إذ إن غياب القوى السياسـية والعسـكرية

والاقتصاديـــة أدى للتفســخ الاجتماعى وانهيار التعليم وانتشــار الفســاد فى كل أجزاء الدولة، بل إن تســليم القيادة العســكرية الحكــم للقيــادة العقائدية هو تأجيــل مؤقت للانهيار الشــامل والكامل للدولة المصرية الحديثة.

لم تتعلم ٢٥ يناير من يوليو ١٩٥٢م، إن قيادة جمال عبد الناصر الواعية برغم صغر عمره اســتطاع ببســاطة بســط ســيطرته على الهيكل الإدارى والسياســى والاقتصادى أيضا للدولة، واستطاع أن يحظى بتأييــد الجماهير برغم معارضة الأحزاب القديمة غير المباشر لفقدانها مصالحها، وبرغم انقسام مجلس قيادة الثورة بين نجيب والشــيوعيين والمؤيديين له، استطاع السيطرة على القوات المســلحة والمؤسسة الأمنية الداخلية، ومن أول يوم ظهرت بوادر حركة جديــدة لتغيير الهيكل العام، ولم يصطــدم بالقوة الملكية أو القوى المحتلة أو السياســيين القدماء ولكنه أقدم على الحلول الســلمية فى خروج الملك، وتهدئة النفوس المضطربة للخوف من الخوض فى حمامات دماء.

ثم أعلن السيطرة على الجيش بتعيين الضباط الموالين وتصفية الفاسدين، ثم أحكم السيطرة على الأحزاب بحجة فساد عناصرها وعليها بإصلاح نفسها، ثم اعتقل كل من يفكر فى استخدام القوة

ضد الحركة أو الإضراب وشلل البلاد، عُمره فى الثلاثينيات واستطاع بحنكة الكبار السيطرة على مستقبل الأمة، الدستور الذى كان يعتبر إنجاز ١٩١٩ عطله بدستور جديد وإعلان دستورى لصالحه والقضاء متحكم فيه بالمحاكم السياسية أو محاكم الثورة أو المحاكم العسكرية.

فى ٢٥ يناير فكر العسكر كيف يحمون إنجازاتهم، وكيف يتعاونون مع الإخوان ولم يفكروا فى الصالح العام، ونتيجة خروجهم من اللعبة السياسية تدفع الدولة ثمنها لأنهم لم يحققوا الدستور الذى سيحكم لأنهم صفوا النشاط السياسى الوحيد حتى لو كان فاسدا، أعضاء الحزب الوطنى ٣,٥ مليون، الكثير منهم يصنف على أنه فلول أو فاسد، ولكن الدولة كلها تحتاج لإعادة الهيكلة وخاصة فى التعليم والدروس الخصوصية والمدارس الخاصة وانهيار القيم الأخلاقية فيه لأن العلم الذى يباع ويشترى لايكون علما والعلاج إن أدى إلى موت المريض لأتفه الأسباب هو انهيار الأمان للمواطن.

وهيبة الشرطة التى تهان يوميا لا يمكن إصلاحها بزيادة مرتب أو رشوة لهم؛ لأن احترام الموظف العام أو رجل الأمن لابد أن يكون مؤكدا من قبل مؤسسات الدولة. إن القضاء يتصادم

دائما مع السلطة السياسية والعسكرية وكأن القضاء ليس له رابط أو حاكم أو صواب أو خطأ، التعيين فى عصر مبارك كان بالواسطة والمحسوبية ولم تكن أجهزة الدولة الأمنية والقضائية والسياسية تبحث عن قيم العدل والأمانة والعمل الصالح بل كانت مصالح. إن العسكر ككل أجهزة الدولة يحتاج لإعادة ترتيب وملاحقة سليمة للكسب غير المشروع.

أيضا كل رجال السياسة وخاصة من الإخوان كيف صبغوا الملايين فى حكم مبارك هل هم من الفلول أم لا؟!

هل يفضل أن يقدم كل واحد منهم وخاصة من عمل بالسياسة، وأنفق فى الانتخابات الملايين السؤال البسيط من أين لك هذا؟!

إن أكبر أخطاء ٢٥ يناير هو عدم قبول الآخر، فالدول تتقدم بجوار الكتل السياسية والتفاهم فيما بينها، إن فشل الإخوان هو «الترويع والإرهاب» خلال مائة عام، ونسوا أن أفضل شىء فى الإسلام هو الحكمة والموعظة الحسنة.

أفرج عنهم من السجون، هل هم مدانون أم لا؟

هل أخطأوا فى حق المجتمع أم إن المجتمع ظلمهم وأنهم أبرياء ويستحقون التعويض المادى والمعنوى؟

أسئلة يسألها المواطن البسيط

لقد أدرك المواطن البسيط أن حقوقه لن تأتى إلا بالصراخ والفوضى وأن الثورة على سيطرة فئة قليلة على مقدرات البلاد ليس معناها أن تتحول البلاد إلى نهب للمال العام.

إن التصرف بعقلية الاستهتار بالقوى الغاضبة للتهميش السياسى والاقتصادى سيؤدى بلا شك لانفجار لا يحمد عقباه:

أولا: إن إلغاء الحزب الوطنى الشمولى واستبداله بحزب الإخوان الشمولى أيضا فيه نوع من اليأس من العملية السياسية لأن اسم الحزب هو الحرية والعدالة والذى من الصعب قبوله.

فليس هناك قبول لفكرة الحرية كما هى ليبرالية غربية أو حرية اختيار الحياة التى يحتاج فيها المواطن للتمتع بحريته من هدوء ونظام ومتعة التذوق الفنى لأن الاتجاه اتجاه دينى فقط.

أما العدالة فلن يستطيع المساوة بين السلفى والمسيحى فى النظام القضائى والأمنى والسياسى والاقتصادى للدولة، مصداقية الاسم سقطت من أول يوم.

ثانيا: إن حجم الشباب الثائر يفوق مقدرات وتصورات الكثير من العسكر والإخوان فهم يناقشون مستقبل بلادهم بأسلوب ديمقراطى غربى والعالم الغربى يؤيدهم، ومتأكد من سقوط الدولة

المصرية فى أيديهم ولهذا شجع القنوات الفضائية على استقطابهم ومكاتب الحقوق المدنية وهى فى أولها سبوبة لجمع التبرعات ولكنها فى النهاية صرخة كبيرة ستهدم كل مؤسسات الدولة.

ثالثا: تسليم العسكر الحكم للإخوان كان واضحا كما كان واضحا التنسيق بينهم وهى أمور كحرب أكتوبر - حرب جزئية - تنتهى بمعاهدة سلام مشكوك فى نتائجها وصيغتها، ولكن الحقيقة المؤكدة أن مصر تحاول شد الانتباه إلى غزة أو بيع الغاز لإسرائيل. القضية هى الكيان السياسى والأمنى العسكرى المصرى المنهار.

براعة الإخوان فى المعارضة ليس معناها أنهم قادرون على إدارة الدولة، وأصبح واضحا هروب الرجال الأكفاء من المناصب الوزارية ولم يعد أمامهم إلا رجال مبارك الذين يملكون الخبرة أى سيستمر الحكم كما هو عليه من فساد، وفقط تتغير الأسماء.

رابعا: إن المظاهرة والحركة والانتفاضة والانقلاب لهم خصائص والثورة لها خصائص أخرى، أبرز هذه التغيرات ثورة ٢٣ يوليو لأنها غيرت الحكم من ملكى إلى جمهورى، من تعدد الأحزاب إلى حزب واحد، من حرية رأسمالية إلى اشتراكية، من استثمارات أجنبية فى الشركات والبنوك إلى تمصيرها، هكذا تكون الثورة سواء بالسلب أم الإيجاب.

إن ٢٥ يناير هى حركة لم تنقذ الوطن بل هى حركة بداية النهاية لحكم مستقر استطاع تنفيذه ببراعة مبارك، بالرغم من فساد الحكم فإن جموع المواطنين تتذكر أيامه بالأمان.

خامسا: إن الجبهتين العنيدتين أمام حكم الإخوان وأخونة الدولة هما الإعلام والقضاء، ويعتقد البعض أن هناك وسيلة لإضعاف الجبهتين وأعتقد أن الجبهتين ستكونان السبب فى سقوط الحكم وبالتالى الفوضى الشاملة وسقوط الدولة المصرية.

سادسا: من أخطاء الحكم الفردى أو الشمولى هو عدم قبول الآخر ومد يد التعاون للمصلحة العامة، مازال الخطأ هو الحديث عن عهد بائد أو ثورة مضادة، إن تعدد الأحزاب والائتلاف بينهم فيما يخص مصلحة الدولة والمواطن يستدعى عدم استعداء طائفة على أخرى.

حصل أحد الطرفين المتنافسين على ٤٨٪ والآخر ٥٢٪ وتعتبر أن النسبة بينهم ضئيلة، لماذا لايتصل أحدهم بالآخر من أجل صالح الوطن فى تخاطب مستمر؟ ولكن تلفيق التهم إن كانت افتراء أو صوابا ليس من الصالح العام لأن هناك نسبة ٥٠٪، ففضل الآخر على الطرف الأول مد يد التهنئة على المنافسة الشريفة ومد اليد مصافحا من أجل التباحث عن خطة النهوض بالدولة.

ليس خطط كل طرف أفضل من الطرف الآخر ولكنها رؤية تستحق الدراسة والتباحث والتفكير من أجل الصالح العام.

سابعا: كيف تحكم دولة بدون دستور؟! كيف تكون هناك ثورة وليس لها منهج أو قادة أو رؤية أو هدف واضح؟!.

إن عيوب أى نظام هو تدمير النظام السابق عنه ولكن أخطأت الثورات فى إلقاء اللوم على النظام السابق وكأن الفضل فيهم والمفاسد فى غيرهم، لأن كل حركة فى الحياة لها إيجابياتها وسلبياتها حتى مهما ساءت هذه السلبية، وحينما تظهر أخطاء فى الحكم المثقل بمصائب النظام السابق مع أن نفس الخطأ هو هو، ولكن الرؤية المنهجية الشاملة للإصلاح العام تفتقدها الثورات المصرية. إن الإخوان هم جماعة دينية وتحولهم للعمل السياسى كان لابد له من ضوابط، وإن الدستور الذى ينوون التحكم فى صياغته سيكون أكبر الأخطاء التى سيقعون فيها، لأن مدنية الدولة لارجوع عنها مهما حدث من تطورات فالأجيال القادمة ليست فى سن الأربعين حتى الستين، إنها من الثامنة عشرة حتى الأربعين، وهؤلاء طاقة جبارة وشباب مضطرب يائس يحتاج لمعجزة من أجل ترويضه بدعائم القانون والنظام والدستور.

لن تكون هناك انتخابات قادمة نزيهة بل معارك فوق طاقة

البشر تحملها، وسقوط الدولة المصرية أصبح وشيكا إن لم تحدث معجزة، ليس تشاؤما أو تفاؤلا ولكنها حسابات صعبة من دراسة الحركة التاريخية فى العالم.

من لم يقرأ تاريخه يضيع ومن يبتهج بالمسميات دون الأفعال يكون قد بدأ دق المسمار فى نعش زمانه، العصور الوسطى المتخلفة فى أوروبا انتهجت الفكر الدينى وسيطرة الكنيسة على الحكم والفكر والتعليم والتنوير، حينما توجهت الجماهير للنهضة أسقطت الحكم الدينى، حينما قامت الثورة البلشفية فى روسيا ١٩١٧م أسقطت الحكم الدينى، حينما ثار الشعب الإيرانى على حكم الشاه الاستبدادى انحازت إلى فئة دون أخرى وتحولت إلى شمولية الحزب الدينى فواجهت العالم بحروب لن تتخلص منها.

ثورة ١٩٥٢م تحولت إلى عسكرة الدولة ومواجهة تحديات انتهت بحرب استسلمت وأعادت كل شىء للوراء واستمر حكم مبارك فى تدعيم الصورة القديمة من الحكم مع استبدال شخص الملك بشخص رئيس الجمهورية والديمقراطية صورية.

حركة ٢٥ يناير انتفضت ولم تغير هيكل الدولة فتحولت إلى حكم حزبى واحد ضاق منه الشعب أخيرا، لم يستفد الحكم

الدينى فى مصر من تجربة العصور الوسطى فى أوروبا وستؤول الأمور إما إلى مواجهة عسكرية فاشلة ستفقد فيها مصر أرضها أو انتفاضة سيسقط فيها ضحايا لتعود الأمور إلى مواجهة صعبة وفوضى.

إن الدولة كيان وهى مؤسسات مستمرة بفعل التأييد الجماهيرى لها، إن سقوط هذا الكيان هو سقوط للدولة وبالتالى ضياعها، إن الحديث عن الثورة والشهداء والقصاص واسترجاع الأموال والماضى البغيض والفساد والأمراض المستعصية سيتسبب فى إسقاط الدولة دون البحث عن أسباب النهضة الحقيقية فى العمل والالتزام وهيبة الدولة والشرطة والأمن وقدسية القضاء واحترام القانون، إن مدنية الدولة هى الإنقاذ الوحيد، وقبول الآخر هو الاحترام الواقع لقيمة الإنسان وحقه فى الحياة.

إن الاستعانة بكل قوى المجتمع من مفكرين وأدباء ونساء وقضاة وأصحاب المصالح من القوى الاقتصادية العاملة فى مصر ومد اليد لكل فرد يعيش على أرض مصر هو الواقع، والبحث عن أخطاء الغير عما سبقه وإرهابه والثأر منه وتقليل حجمه ودوره وسياسة فكر عن آخر والقبول بالعنف والبلطجة وعين الحكام على الحكم والسيطرة عليه ليسيطر نفوذهم وخشيتهم من غضب

الجماهـير التـى تكون ضد القانون أو ضـد رؤية الحزب الحاكم أو ازدواجية الحكم بين حاكم بمؤسسـات الدولة ومرجعية دينية ذات استراتيجية مصلحية ستؤدى لهياج الجماهير وتصادمها مع الأجهـزة الحاكمة ليكون صراعا سـينتهى بفقدان المواطن حريته وكرامته ومستقبله ودولته.

إسرائيل الكوبرا
كتبت عام ٢٠٠٣م وحظر طباعتها

مقدمة إسرائيل الكوبرا

تقاس عظمة الأمم بالمساحة التى تمنحها للفكر والإبداع والرأى الآخر.

منذ هزيمة ١٩٦٧م.. والهزائم تتوالى، مما يؤكد أنها لم تكن حرب صدفة ولكن تم الإعداد لها جيدًا لسنوات طويلة من قبلها حتى اتفاقيات السلام كانت معدة سلفًا.. وتخدير الناس بسلام هش لا يطمئن النفس أو يضمن المستقبل.

السؤال البسيط هو هل نحن راضون أم لا؟

هل السلام حقيقى فى حرية التنقل والتجارة والمعاملة بالمثل؟ لا أعتقد.

هل إسرائيل دولة ديمقراطية يتساوى فيها أطراف البشر والسكان العرب لهم حق المواطنة؟

لا أعتقد.

هل حل الدولتين فيه الأمان والاستقرار والاستمرار؟!

لا أعتقد.

منذ دعا هرتزل «الصحفى الصهيونى» إلى الاستيطان والوكالة اليهودية.. ونقل اليهود فى الحرب العالمية.. وعصابات الهاجاناه.. وتسليم إنجلترا لهم.. والتقسيم وهزيمة جيوش العرب فى ١٩٤٨م وعدوان ١٩٥٦م فى مؤامرة ثلاثية.. ونحن نعيش فى ظل مؤامرة وراءها مؤامرة.

إسرائيل غير مستعدة للانسحاب.. انسحبت من سيناء لأنها تريد الانفراد بما لديها.. لإذلال شعوب المنطقة بالقدس وحرمها المسجد الأقصى واستضعافهم فى مؤامرة مستمرة تحتل فيها أوطانهم.. وتفرض عليهم الأوامر العليا لسلب مقدراتهم وثرواتهم ومستقبلهم.

العرب سكان المنطقة يعيشون مهزلة الاختلاف.. إن تقاتلوا ففى منتهى الشراسة «حرب أهلية فى لبنان».. مشكلة عدم الاعتراف بالآخر والتعايش معه وبيع الرؤية السياسية لقوى خارجية.. تدخلت فيها بسهولة فرنسا وأمريكا والخليج.

العراق مجموعة طوائف وسكان أكراد وشيعة وسنة ويزيديون وغيرهم.. اختيار الدور القومى العربى عوقب بحرب مع إيران أنهكت قواه بمساعدة أمريكية وعربية.. وتآمر ليس له حدود..

وتم احتلاله من أمريكا بواسطة دول الجوار العرب وليس تركيا أو إيران.

انهزم عشرات المرات فى تفتيش أرضه.. وقهر شعبه وإعدام رئيسه يوم عيد الأضحى.. بيد أبناء بلده.. وسرقة أموال النفط وتشتيت أهله.. وأصبحت أخبار العراق هى فرجة العالم على خيبة العرب وعقاب العراق على اختياره القومى.. (العراق التى استضافت ٤ ملايين مصرى).

ضاع العراق ولا عودة ولا أمل. والسودان أرض كبيرة.. ثروات عظيمة.. تنمية عالية.. تستهلك فى حرب يومية وتستنفد موارده ويتم تهديد رئيسه بالمحاكمة والإهانة.

حتى ليبيا.. حوصرت وعوقبت ولم يكن لها حل سوى الاعتذار والإذلال والسخرية لأنها اختارت يومًا القومية.

الجزائر والمغرب ليسا بينهما حدود مفتوحة، والاثنان يتحدثان تقريبًا لغة دارجة واحدة.. ومصالحهما مشتركة.. اختارا الخيبة فى الاختلاف.. لأن توحدهما وانطلاقهما الاقتصادى يقلق العالم الذى له مصالح بينهما.

جاء دور فلسطين.. بعد الشتات وأصبحت القضية هى قضية لاجئين وضاعت الحقوق حتى وصلت الآن إلى جدار عازل ودولتين ومستوطنات يعجز الجميع عن إيقافها.

شـعب يضرب ويهجر أرضه ويعيـش فى خيام.. طوال عمره أجيال وراء أجيال.. وتأجيل وتسويف وتقتيل.. ودس للعملاء.. وإنفـاق الأموال لإذلال شـعب تحول مع مرور الزمن إلى مشـكلة لاجئين، منظمة التحرير لها القرار السياسى ليتم حصارها وفرض دول عربية وصايتها على منظماتها.. ليتحول الشعب اللاجئ إلى سياسى استهلاكى لأموال السياسيين العرب.

حتـى وصلت العقيدة السياسـية فى تحرير الأرض إلى عقيدة دينية للجهاد والكفاح بالروح.. لنصل إلى انحراف تام فى الجهاد.

قتـل الأبريـاء من ركاب الطائرات أو سـكان عـزل أو حتى نسـاء أو رياضيين أو تفجير النفس فى تجمعات سـكانية بحجة الشـهادة.. والتلاعب بانتخابات حرة فـى ظل الاحتلال لينتج حماس.. التى ظهرت فى عصر غير العصر وتتعامل بمنطق خمسين عاما مضت.. ونسـيت أن هناك اتفاقيات موقعة واستسلامًا بحق إسـرائيل.. ونبذ العنف.. وكلها اتفاقيات منذ كامب ديفيد.. إلى أوسلو.. إلى الحكم الذاتى.. إلى حكومة فلسطينية ورقية هشة إلى أموال الجهاد التى تصب فى يد المتلاعبين والأفاقين.. إلى إزهاق الأرواح إلى حرب غزة الهزلية.. بندقية أمام طائرة لتهزم البندقية ويقهر الشعب ويموت الأطفال.

ليس أمامنا سوى أن ندعوا الجميع بمن فيهم الساسة الإسرائيليون إلى أن يعيشوا الواقع ويتعاونوا مع الفلسطينيين.

عدم التعالى.. والتعصب.. والتحدث بلغة الدين الذى يقول إنهم شعب الله المختار.. وأن العرب درجة ثانية ينوون قتلهم. ولابد أن يتفهم العرب أن إسرائيل أصبحت واقعًا يصعب محوه ولكن من الممكن التعامل معه فى التعاون من أجل السلام.

لابد أن تكون للفلسطينى أرض وسماء وجواز سفر وحياة كريمة.. كيف يعيش ١,٥ مليون فى شريط ١٥ كيلو. ما هو عمله أو نشاطه أو فكره أو مستقبله.

حبستم شعبًا.. قتلته الوحدة فلجأ للتعصب الدينى والانتحار.. وهناك من يلعب فى رأسه بأنه شهيد.. مع أنه فعلا شهيد بدون حتى إراقة دماء؟!

لماذا لا يقتنع كل فرد من سكان المنطقة أنه لن يعيش فى سلام إلا إذا احترم عقلية وثقافة وآراء الآخر؟

فى قصة مجدى رزق خلطنا العبادات فى الرياضة، والرياضة منذ زمن بعيد مخترقة فى السياسة.. بالسياسة تتقرر الجوائز والمكاسب والخسارة ويدفع السذج من الجماهير من أعصابهم ثمنًا لتعصبهم المدفوع بوسائل الإعلام.

فالحكم إنسان يستطيع تغيير النتائج بمنتهى البساطة طالما كان هناك قانون يطبقه فى ملعب.. فالساحة الرياضية سياسية حولناها إلى عقائدية.. وبدلا من أن يسجد فى المسجد أصبح يسجد فى ملعب كرة القدم.. أمام لاعب من نفس دينه وبلده ولكن لإثارة النوبات الدينية وتفريق الأمة كأنهم أطفال يتلاعب بهم أصحاب المصالح.

إننى لم أمنع من الكتابة فى أى موضوع.. وهذا إن دل إنما يدل على أن مصر تتجه الاتجاه الصحيح فى نشر قواعد الديمقراطية وحقوق الكاتب فى الإبداع والفكر، ولقد فات من قرأ من قبل أن ليبرمان فى الثانية.. أى إن الأمر بعد سنوات طويلة ثلاثين أو حتى أربعين عامًا.

إننى أتمنى ألا تتحقق أى كلمة من خيالى ككاتب أو هاجس من وصف نفسه فى مذكراته بأنه أفضل إنسان..

أتمنى أن تنسحب إسرائيل وتتعاون مع السلام.. ويعيش الجميع فى أمان.. أتمنى أن نعيش بلا تهديد من إنسان ينوى تفجير السد العالى وإغراق أرضنا.. أتمنى أن تقل درجة التعصب.

عرضت فى مارس القصة على جماعة القصة فى نادى الصيد.. وانبرى دبلوماسى يعمل فى وزارة الخارجية للدفاع عن وضعنا الذى يصوره أنه ليس هناك أفضل منه.

وإننـــى أتمنى أن يكـــون على حق وأننا نعيش عصر القوة وأن من يريد لنا السوء يعمل لنا ألف حساب.. أتمنى أن نكون أقوياء بوطننا وشعوبنا العربية وجيراننا الذين اختاروا السلام طريقًا.

وأن المحاذير التى عرضتها ما هى إلا ضرب من الخيال الذى يستحيل تخيله أو تحقيقه..

أتمنـــى ألا يكـــون هناك متعصـــب، بل هناك حـــق للمواطن فى الاختيار ســـواء فى الحياة الاجتماعية أم السياســـية أم حتى العقائدية.

كيـــف يعيش الإنســـان وهو مهدد وخائف؟.. وهناك ســـلطة تمســـك الســـيف تهدده بقطع رقبته وكأننا نعيش عصور التخلف القديمة؟

أتطلـــع إلى عصر جديد بلا خـــوف أو محاذير قاتلة تحيط بنا وبعقولنا.. وبمستقبلنا.

خلـــط السياســـة بالدين.. أو السياســـة بالرياضـــة. أو الدين بالرياضة محاذير يجب التنبه لها.

عرضت قصة مجدى رزق لم يستحسنها اللوبى الدينى، وقالوا بتحـــد واضح ليـــس عيبًا الخلط. وإن أفضل ديـــن فى العالم هو عقيدتنا.

إننى ببساطة أذكى روح الانتماء للروح الرياضية غالب ومغلوب.. ابتسامة على الوجوه.. تصفيق للفائز وتشجيع للمغلوب ليحسن قدراته للفوز لأن الرياضة متعة إنجاز الأرقام القياسية وتحقيق المستحيل.

يقول أحمد رجب الكاتب الصحفى الكبير.. إن من يعتقد أنه فاز فى الاستفتاء ١٠٠٪ فهو غير صائب، لأن الله عز وجل إن عمل العالم عليه استفتاء ستكون نتيجة الاستفتاء ٦٠٪ لأن هناك من يؤمن بشىء مختلف.

وظيفة الكاتب توضيح روح الجمال فى العالم، لأن جوانب الجمال عظيمة والابتعاد عن الجهل بالآخر لأن الحياة قصيرة وإحياء روح الأمل بالمحبة ترفع من شأن البشر.

إسرائيل الكوبرا

لست أدرى أى هاجس هو أنا.. أو أى حقيقة من حقائق الزمان أنا.. قد أكون خاليًا من أى اعتبار أو أكون جزءًا من مؤامرة.. أو أكون حلما خياليًا يصل لحد كابوس قاتم أسود أتمنى نسيانه.

برغم الهواجس والمشاعر المتضاربة التى تؤدى بحالتى إلى درجة الهذيان سوف أكتب مذكرات قد تنفع الإنسان.. قد تكون

حقيقة أو خيالا ولكننى كتبتها لتحفظ فى خزانة سرية لتصبح علنية بعد مرور فترة زمنية.

سامحونى إن أطلت فى بعض المواقع وذكرت أحاديث ومشاعر أو تخطيت أيامًا وليالى ولكن هذه هى مذكراتى.

إن قدر مصر من قدرى، قدرها تتوسط الأماكن المهمة، وعلى حدودها أنهار، وأسرار.

صعودى للقمة

ابن وزير سابق، كان ضابطًا بالجيش، يدرك أن السلطة مع القوة.. ويخشى دائمًا الرتبة الأعلى فهى القادرة على إصدار الأوامر وتدير القواعد.. وعلمنى أن أغنى للريح لأن القوة والسلطة والمال شهوات لايستطيع الإنسان كبح جماحها.

عُرض علىَّ عرض لا يرفضه إنسان.. أن أكون رئيسًا للدولة.

لم يكن الدافع لذلك هو تفوقى الدراسى أو ذكائى.. وقدرتى على المناقشة والتفاوض.. ولكن كانت هناك أعين تراقبنى لكى أصبح هذا الإنسان لأقفز من مكانى إلى مكان آخر فى الأوان المناسب.

لقد كانت رسالتى لنيل درجة الدكتوراه عنوانها «التفاوض إلى آخر مدى» ومرجعها أن التاريخ العربى والإسلامى هو التأريخ

للتاريخ الفرعونى.. أى إن المصرى القديم الذى طمع فى الدنيا بما فيها من جمال وخلود بنى الأهرامات وحنط الموتى من أجل الحياة الأبدية مع أشعة الشمس الدافئة.

إن الطامعين فى مصر تأثروا بها.. مهما بالغوا فى قسوتهم سواء الإغريق أم الرومان أم حتى العرب.

إن الصراع التاريخى بين البشر والأديان مضمونه فكرة واحدة، مزج القوة بعقيدة، حتى لو كانت متعصبة، كالشعب المختار، أو أفضل الأديان أو وقوف العقيدة مع جانب ضد الآخر.

العالم يتمنى السلام ولكن النفس البشرية تريد الحروب.. والسلطة والقوة والمصالح لا يفهمها عامة الناس وهم وقود الحروب.

إن ما يقرأه أو يدركه أى إنسان فى العالم هو ما يراد به أن يعرفه، والحقائق تتناسى فى طيات التاريخ.. وإن الأحلام هى القوة الوحيدة المسيطرة على عقول البشر.

إن وضع مصر صعب للغاية، شعبها يحب الحياة، ويعشق الآخرة بأى وضع كان منذ آلاف السنين. مستعد أن يفرط فى جسده ولكن لن يفرط فى أمله، يعشق البكاء وتعذيب الذات ويضحك لأقل همزة، ويأمل فى أقل أمل، ولا ينفع معه جيش

أو قوة.. يستسلم استسلامًا رائعًا للغزاة الرومان والإغريق وكل من تلاهم فى وهم لذيذ أنه يملك الأرض والآخرة.

إن التفاوض من أجل السلام، هو الرجوع للتاريخ، والاستسلام للمعتدى، حتى يذوب داخل الكيان المصرى، لينقض عليه بحضارته القديمة.. ويمتصه ويحلله داخل نسيجه ليصبح جزءًا من كيانه.

إن كل اتفاقيات السلام.. تحتاج للفحص والتدقيق لأنها بمرور الزمان سيضيع مفعولها وستكون لا قيمة لها.

وعلى السياسى أن يبحث عن الحل الممكن فى ظل القوة المتاحة أن يحقق لنفسه المصالح الممكنة.. وإن مصالح مصر الممكنة هى فى السلام التام حتى إن وصل الأمر للاستسلام التام.. فالنهاية دائمًا ستكون خسارة فادحة بالحروب وتحقيق الأفضل بالسلام حتى لو كان استسلامًا.

هكذا كانت رسالة الدكتوراه، والطريق إلى المراكز المرسومة حتى أصبحت رئيسًا للدولة.

نعم شاب فى الأربعين، وعلىَّ أن أتحمل مسئوليات كبيرة، ليست فى إدارة البلد ولكن لقيادة المنطقة للسلام التام.

فلقد انقضى على اتفاقية السلام الأولى عشرات السنين.. والتطور الخطير هو أن إسرائيل أصبحت تملك كل شىء..

وتسيطر على كل العالم.. وأن هناك مخططًا جديدًا، أن يتولى رئيس حزب إسرائيل بيتنا رئاسة الحكومة الإسرائيلية.. وبالتالى ينفذ وعوده، الآن هو فى الثمانين من عمره، ولكنه استطاع بدسائسه وتلاعبه أن يصل إلى أن يكون رئيس أكبر حزب فى الدولة الجارة لمصر القوية فى الشرق الأوسط.

حاول بعض العرب الالتصاق بإيران، كقوة إقليمية، وكنت متأكدًا أن إيران مثل مصر ليس لها العمق الواضح فى المنطقة وأن القوة السياسية تعتمد على أبعاد أخرى.

* * *

رئيس الجمهورية

أقسمت اليمين، توليت قيادة البلاد، وأصبحت مقيمًا فى البيت الأبيض المصرى بمرسوم وطنى وليس بانتخابات.. للتطورات الخطيرة فى المنطقة التى أقرها المجلس الأعلى للحكم.

بعدما أقسم ليبرمان على أن ينفذ ما وعد به.. أن تكون كلمة إسرائيل هى العليا.. وأن سياسة الشرق الأوسط التى تؤدى للتأجيل والتسويف والمماطلة بحجة محاربة الإرهاب والاغتيالات لم تعد تجدى.. حتى جاء هذا التطور الخطير.

ليبرمان

أتذكـر هذه الأيام وأكتبها فى مذكراتى، فهى السـر الخطير لاختيارى رئيسًا للجمهورية.

ليبرمـان، الوجه العنيـف، الرجل المخضـرم العجوز الذى تخطى الثمانين بقليـل له وعود ممزوجة بأحلام وكلام كثير عن تدمير المنطقة ومن يقف فى وجه إسرائيل.

منذ عشـرات السنين فى مقتبل حياته هدد بهدم السد العالى ليغـرق مصر وأهلهـا.. ويدمر الجسـور والحيـاة والأمل.. هدد أيضـا باقى الدول فى المنطقة بهدم الكعبة وآبار البترول وسـبل الحيـاة حتى إيران القوة النووية بالمنطقة.. مفاعلها.. وبترولها.. وصواريخها.. ومطاراتها.

هدد ليبرمان جهاز المخابرات المصرى القوى...

إن تهديده محط اعتبار.. إن له يدا طولى ومحط اعتبار.

ليبرمان شـكل الحكومة الجمعة، واسـتراح السـبت وأرسل تهديده الأحد.. ودمر إيران الإثنين.

محطات الصواريخ.. المفاعـلات النووية.. المطارات الحربية وغـير الحربية.. المصانع المنتجة.. المستشـفيات والمدارس.. آلة حربية جبارة مدمرة لكل شىء.. نفذت المهمة فى ٢٤ ساعة.

بادر كل رؤساء الدول وملوكها بالاتصال بكل رؤساء الدول استنكارا وشجبا ودعوة لاتخاذ القرار الدولى بمعاقبة المعتدى.

لم تكن الأمور سهلة بالنسبة لى وأدركنى سبب اختيارى رئيسا لمصر وأن الموضوع كما توجست منه وراءه أسباب عديدة فاختيارى من ضمن المرشحين.. والسرعة التى تمت بها والمجلس الذى رشحنى والأفراد المقربون منى، يدل على أن الأمر لم يكن مصادفة بل مرسوما بدقة، وقد يكون مرسوما من قوى خارجية يحميها فى المقام الأول اختيارى.

لا أنكر أننى عشت أصعب لحظات عمرى وأنا أشاهد ما جرى والدمار الذى لحق بإيران، وما قد يلحق بى وبأمتى وبلدى وناسى.

لم أجد أمامى إلا أن أجتمع بمساعدى، واتصلت برؤساء بعض الدول العربية، وطبعا نصائح الدول الأوروبية والدول الكبرى.. وكان الرد الموجز:

– أخطأت إيران وعليك بمحادثات سلام مع ليبرمان فهو عنيد ولا يفلح معه إلا التصالح والتنازل.

كانت ردود الفعل واضحة:

– لندع الشرق الأوسط يحل مشاكله بنفسه.

بهدوء تحدثت مع مساعدى، واتصلت بقادة الدول العربية وملوكها.. وتقرر إرسال وفد بأسرع ما يمكن.

فى اليوم التالى هبطت الطائرة فى مطار بن جوريون وعلى متنها وفد من القادة العرب.. لم نجد أحدا فى استقبالنا غير مدير المطار الذى اصطحبنا إلى قاعة كبار الزوار.. وتركنا ثلاث ساعات مع بعض المشروبات والطعام الخفيف..

تملك الضجر رؤساء الوفود.. قال أحدهم:

– يلقبونه فى إسرائيل بسوبرمان.. إنه ليس فى الحقيقة رجلا فكيف يقولون عنه «مان».

واستهزأ الآخر قائلا: إنه فى الحقيقة ليس بمان.. ولكن بجبان.

بعد فترة فتح الباب وجاء مدير المطار يطلب فى هدوء وبرود شديدين أن أصطحبه للغرفة المجاورة.

الغرفة بها خريطة للمنطقة ليس هناك طاولة للمحادثات.. فقط ليبرمان جالس وهو يضع ساقا على ساق.. وبعينين ماكرتين قبيحتين لرجل تخطى الثمانين من العمر.. نظر إلىّ ولم يقم من مكانه تحجج الصاحب قائلا:

– أصله ضعيف الحركة.

جذبتنى ابتسامة، احترت فى تفسيرها.. ومد يده وتعمد أن تكون متعالية وبلا مبالاة.

– رئيس مصر الجديد الصغير العمر.. أتمنى أن تكون موفقا فى الوصول بنا لحل مشكلة الشرق الأوسط.

قبل أن أفتح فمى سألنى:

– هل تعلم ما هو هدف الحزب الحاكم فى إسرائيل بيتنا؟!

تمهلت فى الرد فبادر قائلا:

– لا نريد أى عربى فى إسرائيل.

ابتسمت باحثا عن حل:

– إنهم معكم منذ عشرات السنين، يتحدثون لغتكم، ويعملون لديكم ومعكم، كيف تقول عنهم فلسطينيون؟! إنهم أكثر قربا لكم. من العرب، فهم منكم وأنتم منهم.

هز رأسه مبتسما، وقام من مقعده بتكاسل رجل عجوز، الدهاء يملأ رأسه وكأنه يضع الشباك والشراك حول الفريسة وتقدم إلى الخريطة المعدة خصيصا للمقابلة.

أتى بقلم.: ورسم سهما وقال:

– بلدنا ديمقراطى.. لن نطردهم.. فقط سيتحرك عرب غزة جنوبا إلى سيناء خلال عام.. للسكن فى هذه المناطق.

قبل أن أرد أشار بسهم من الضفة الغربية لنهر الأردن إلى الأردن والعراق.. ابتسمت حيث إن المحادثات مازالت فى أولها وأحب أن أوضح موقفى وموقف باقى الرؤساء.. وإذ به يشير إلى سوريا ولبنان:

– المتبقى من عرب ٤٨ سيذهبون إلى هذه المناطق...

لم يعد إلى مقعده وقال لى وهو يشير بأصابعه:

– خلال عام واحد.

هممت بالرد...

نظر إلى مساعده فاتكأ على يديه.. واستند على عصاه حتى خرج من الغرفة وأنا خلفه أحاول إثناءه عن خطته...

فنظر إلىَّ بتعال وسألنى:

– هل تحرك أحد عندما ضربنا إيران؟.. لن يتحرك أحد عندما تغرق أرض مصر.. البترول سيدمر.. وترتفع أسعاره، وهناك من يشجع ذلك فى العالم كله لما له من فوائد.. أليس لك حس دينى.. قد تنفجر الكعبة وكل من يزورها.. وأحنيت رأسى مفكرا.

فتح لى الباب آمرا:

– خلال أسبوع تبدأ الخطوات.. ولا تنس أن مشاريع سيناء كلها من أموال بترول العرب.. وتسكين الضفة من بترول العراق.. وعرب ٤٨ إلى سوريا ولبنان لن ندفع فيه شيكلا واحدا.

ذهبت للإخوة العرب فى الغرفة المجاورة.. صاح منهم من صاح.. وصرخ منهم من صرخ.. وبكى من بكى.

حاولنا الحديث مع العالم الحر.. وشعوب العالم المحبة للسلام وجاء الرد خلال أيام.

– إنها فرصة للسلام اغتنموها.. فهى الفرصة الوحيدة للعرب.. ستكون إسرائيل خالصة لإسرائيل. ويعود العرب للعرب.

الإقناع

مرت الأيام علىَّ صعبة.. الوفود العربية عادت لبلادها تنتظر رد فعل مصر.. أكبر بلد فى المنطقة.

أكد لى مدير المخابرات جدية خطة ليبرمان بل إنه يتمتع بتنفيذها فهى فى خياله منذ عشرات السنين، حيث ينفجر السد العالى ليجرف أمامه مليارات الأمتار من المياه ليغرق مصر كلها.

سافرت لدول المنطقة أكثر من بلد يوميا محاولا لم الشمل أو الإقناع أو البحث عن حل. والفكرة التى لدىَّ واضحة:

سنكون داخل حدودنا.. وهم داخل حدودهم، لن نتعاون معهم بل سنكسب المعركة أخيرا معهم، ستكون دولة محاصرة بدول عربية تتعاون فيما بينها وتعزل إسرائيل عنها مستشهدا بالمثل المصرى:

– يا نحلة لا تقرصينى.. ومش عايز عسل منك.

التوطين

وافقـت، ووقعت نيابة عن الدول العربية على خطة التوطين.. خرج ملايين الشباب العربى من إسرائيل إلى سيناء والأردن والعراق.

تم إنفاق المليارات فى البنية التحتية من طرق ومسـاكن ومدن مرتبطة ببعضها البعض فى سيناء.

خلال عام.. تم توصيل العرب إلى المسـاكن الواسـعة بسيناء وبسـهولة وجـد عرب الضفـة أماكن فى العـراق التى أصبحت أمريكية حكومة وسياسة حتى شعبا.

رحبت سـوريا بعرب ٤٨، التوطين فى الجولان، هناك تم لم شمل الأسـر بعد عشرات السـنين إذ تذكر الأهل أهلهم.. ولكن الأمل فى التجارة والربح باق مع ما تبقى من أهل الشام.

رد الفعل غير المتوقع

لم تمض شهور على توطين القادمين ولهم فى السياسة شئون وشجون وفكر وفائدة وأسئلة...

أيـن النضال؟.. تركنا العرب فى شـتات لقد تم حل القضية بنتائج غير مرضية... لنا سـكن.. ولكـن الهوية؟! أين الوعود، منذ ٤٨ تركنا منازلنا بناء على وعود رسمية...

خلتم القدس مقدسة قبل أى بشر عربى.. وتفريط فى كل فلسطين التى أصبحت كلمة منسية فى التاريخ.

بدأت المظاهرات فى مدنهم بسيناء والتجمعات فى الدول العربية الأخرى.. وبدأت إثارة القلاقل واستعمال الأسلحة النارية.. الطلب بسيط...

دعم مالى.. وحق سياسى.. ودولة داخل الدولة.

رد فعل قوى من إسرائيل...

لابد من تغيير خريطة المنطقة أنتم لا تسمحون بالصوت الآخر (الديمقراطى)...

إن عرب إسرائيل سيظلون فى قلب إسرائيل.. لقد عاشوا معنا وتعلموا معنا وهم منا يتحدثون لغتنا.

لهم كل المطالب الإنسانية من معونة مالية وعينية.. وكل المواقف الإنسانية.

لم أتخيل هذا التحول، هل اندس جواسيس داخل التيار الفلسطينى أم خيبة تضاف إلى خيبتنا.

لم أجد سبيلا للتهدئة سوى الاتصال بليبرمان:

– ألم تشرح لى أنكم تريدون دولة نقية من كل العناصر إلا من عنصركم أنتم؟

– إن الفلسطينيين إسرائيليون الآن، وقد يكونون من الدرجة الثانية ولكننا لم نتخل عنهم.

اتصلت بقادتهم محاولا التهدئة، ولكن لهم مطالب فى أرضنا ومستقبلنا ومنطقتنا وردهم واضح:

– لمدة ١٠٠ عام أو أكثر.. بعتمونا بعدما وعدتمونا بحق العودة وحقوق كثيرة، كانت الوعود للاستهلاك المحلى...

كانت الوعود لشق الصفوف...

كانت الوعود من أجل الفائدة القادمة من أموال البترول أو مساومة سياسية أو ابتزاز للقضية.

علمتمونا كيف نتاجر بالقضية علمتمونا كيف نبيع كل شىء.. الضمير.. المبادئ.. الوطن.

حاولت وجاء الرد:

– إن أجدادنا لجأوا لكم ومعهم مفاتيح بيوتهم، فتم إذلالهم عشرات السنوات.

ليس لدينا الكثير لنخسره، قد تعودنا على الشتات نحن الآن جنود إسرائيل فى الأرض.

سكت وبهت.. واتصلت بمساعدى.. واقتنعت بصعوبة الموقف.. ولماذا تم اختيارى فى ذلك الوقت رئيسا للدولة؟ لأننى لا أملك إلا التفاوض ولآخر مدى.

الحل الصعب

قررت السفر لكل الدول العربية المحيطة أشرح صعوبة الموقف، فنحن نواجه عربا مدعمين بقوى إسرائيلية وقد تكون إقليمية.

لم تكن المهمة صعبة كما توقعت، لقد تفهم الزعماء الموقف والرد كان جاهزا للجميع.

– سنكون داخل حدودنا الآمنة.. وسنعطى لهؤلاء الرجال دورا سياسيا وعسكريا.

وبعد التنسيق مع الجانب الإسرائيلى.. أصبح رؤساء الحكومات منهم والقادة العسكريون أيضا...

وحافظ الرؤساء والملوك على مواقعهم الرمزية.. قد نكون عربا من الدرجة الثانية أو حتى الثالثة.. المهم أن نستمر فى مواقعنا وصورنا مرفوعة على المكاتب.

أهم شىء أن نعيش فى هذا العالم.. ونحافظ على ماء وجوهنا.

رئيس الوزراء الجديد شاب صغير من مواليد غزة يتقن الكثير من اللغات أهمها العبرية.. وقائد الجيش من رفح.. أصبح لهم مقاعد أيضًا فى البرلمان لم يكن هذا القرار صعبا علىَّ ولكنه صعب على باقى الدول المجاورة...

وتمنيت قبـل أن أنام أن تكون هذه آخر مواقف ليبرمان وأن تكون الآلام التى سببها لى ولباقى الدول العربية قد انتهت.

مسـكين شعب فلسطين إن وجد.. يتم التلاعب به على مدار التاريـخ.. سـواء بترك أرضه غصبا أو إضـرارا أو كرها.. أو بيع قضيتـه لمـن يدفع أكثر، وترحيلـه من مكان إلى مـكان.. والآن أصبحـوا حكاما مرتزقة.. داخلهم عقد ليسـيطروا على مقدرات شـعوب المنطقـة وداخلهم ذكرى لا تمحى أبدًا.. وتم اسـتقلالنا لآخـر مدى.. مات منا من مات.. نحـن عملاء ننفذ كما تنفذون أوامر إسرائيل الكوبرا.

فـى الصباح التالى.. تأكدت أنه ليس بمسـكين هذا الشـعب لقد تعلم من إسـرائيل القسـوة والقوة والعناد والقدرة على اللف والـدوران.. رئيس الـوزراء يتحكم فى كل مـن حوله حتى مع مسـاعدى.. وأصبحـت أعيـش وداخلى جاسـوس ينقل فكرى ورأسى وشخصيتى ورد فعلى للجانب الآخر.

الاستقالة وسيناء

مـرت الأيام بصعوبة علىَّ.. فليـس الموقف يصعب علىَّ فقط ولكن على رؤساء المنطقة.

حتى جاءت الليلة التى استيقظت فى منتصفها على الهاتف المباشر من ليبرمان.. هذا الهاتف إن رن أشعر كأن كيانى كله يرن.. برغم المشهود عنى من هدوء أعصابى وتحكمى العقلى الرزين فى كل شىء.

– آلو.

– إن كان لديك مشكلة.. واستعصت عليك وانتابك القلق..

– طبعا.. طبعا

– إن نومك يكون قلقا.. وتحلم أحلاما تصل للكابوس فنخاف من النوم ونصاب بالأرق.

– أفهم يا مستر ليبرمان.

– جاءنى حلم أتمنى أن تساعدنى فى تحقيقه.

– أتمنى يا مستر ليبرمان.

– لقد جاءنى النبى موسى فى المنام.. وسألنى كيف تنام هنيئا وأرض سيناء وبها جبل موسى ليست إسرائيلية.

شعرت بأن البساط يسحب من تحت قدمى.. فأكدت عليه عهدى.

– نحن عقدنا اتفاقا وانتهى.. إسرائيل بيتنا وتحقق..

قاطعنى قائلا:

– وحلمى أيضا لابد أن يتحقق خلال أيام.. سيناء كلها.

قبل أن أكمل الرد:

– مع السلامة.. وأغلق الخط.

فكرت فى الاستقالة.. فأنا دائما فى ورطة منذ أن تم اختيارى رئيسا للدولة.. جلست مع رجال الدولة قال أحدهم بصوت جهورى وهو يخطب بانفعال:

ماذا.. هل نسوا حرب أكتوبر والانتصار.. من الممكن أن تعود وتعود وتعود.

تذكرت السد العالى وتهديده بصواريخه وليس هناك داع للف والدوران.. وعلىَّ اتخاذ قرار حكيم أو الاستقالة.. فكرت فى وسيلة لإقناع الناس وكانت سهلة جدا.

– سيناء شبه جزيرة، التنازل عنها سهل.. فهم بعيدون عنا حتى لو كانوا على بعد خطوات فهناك حاجز القناة.

ثم إننا نشترى السلام.. وسنتقاسم معهم إدارة القناة، وهم بارعون فى التسويق.. وإن كان لهم مطمع نعاملهم كالأطفال نعطيهم بيد ونأخذ بالأخرى.

المهم أننى أقنعت الحزب والمساعدين، وباقى الشعب وفى هدوء تام انسحبت من سيناء.

* * *

انتقلت القوات الإسـرائيلية، وتحكم فى الرجال من الدرجة الثانية، والاقتصاد بيد مدربة رأسمالية تتحكم فى أن تكون البلاد كالاسـفنجة لا تغرق ولا تتحرك فى المياه الصامتة والكل يترقب الخطوة التالية...

فى فجر يوم من شهر مايو رن الهاتف وانخلعت مشاعرى..

– سيادة الرئيس لدى مشكلة.

– سلامتك يا مستر ليبرمان.

– لا يمكننى النوم.. جاءنى فى المنام النبى موسى.

– لا.. أنت من الراضى عنهم موسى أكيد.

قال لى محذرا ومنبها ومذكرا:

– لقد عشـت فى مصر.. وعشـت بمصر.. وقد أهاننا فرعون وجنوده.. بعدما استعملونا كعبيد.

بهت ولم أفهم وإن فهمت لم أتوقع..

– لا أفهم.

– كما تم استعبادنا.. وإهانتنا.. لابد أن نعيد الأماكن لطبيعتها.. شعب الله المختار لابد أن يتواجد فى بلده الأم بكل عزة...

– أوامرك يا ليبرمان.

- لن أنتقم لأجدادى.. فأنا ديمقراطى.. سنعيش جنبا إلى جنب.. سنترككم تحكمون بلادكم التى أصبحت بلادنا.. ولكن أوامرنا نافذة وأموالكم وأرضكم تحت سيطرتنا.

قلت مستنجدا بأى أمر:

- مستر ليبرمان.. إنك فى الثمانين من العمر وحققت لإسرائيل أكثر من أى أحد.. ألم يحن الوقت لكى تهدأ قليلا...

سألت ليبرمان وأغلق الهاتف.. ليتركنى بين الهواجس.. سيضرب السد العالى.. سيغرق البلاد كلها، جيش ليس مؤهلا للمقاومة.. سلم قيادته لغيره.. ديون كبيرة على البلاد ستطالب بسدادها عند أى محاولة للمقاومة.. القمح لن يصل فى موعده.. ستنقلب علىَّ أجهزة الدولة..

ببساطة علىَّ الإقناع.. ولا أفكر أننى برغم هدوء أعصابي، وبرغم خبرتى الكبيرة فى التفاوض شعرت بهزة نفسية هائلة.

تمهلت فى الرد.. فلن يكون هناك من هذا الحل.. فليكن ما يكون ولأقاوم لآخر مدى.

صاروخ ليبرمان

مجموعة من الشباب المقاوم، عسكرت فى مناطق جبلية بالعراق يصعب اكتشافهم، أعلنوا فى وسائل الإعلام القليلة والمتاحة أنهم يرفضون ليبرمان...

جاء الرد سريعا...

صاروخ دقيق التصويب مدمـرا المركز.. والبعض الآخر مدمرا كل بيت من بيوتهم فى دقة متناهية.

اتصلت به قائلا:

– أنت حقيقى سـوبرمان أو أقول لك بالصعيدى مان.. مان.. مان يعنى راجل.. قوى قوى.

أنا طبعا لا يمكننى إغضابك، وطبعا أهم شـىء أحلامك طالما جاء مسـتر موسى لك فى المنام.. لا يمكن أبدا إغضابه وأحلامك أوامر يا ليبرمان.. وسـوف أحاول إقناع الشعب بالفائدة العظيمة التى ستكون بيننا وسأقنعهم بالتنازل عن السلطة لكم.

ضحك قائلا:

– مستر بريزدنت.. الإقناع يأخذ وقتا طويلا.. والأحلام أيضا إن بـردت لا يكـون لها مذاق أو طعم.. أعتقـد أنك لا تتمنى أن أحلم حلما أسوأ من ذلك.

– سيدى.. حاضر.. حاضر.. أكيد ستسمع أخبارا تسرك.

– خذ وقتك ولن يكون هناك مجال أكثر من أسبوع.. أوكيه.

جلسـت مـع الأمن القومـى.. وقيـادة الحـزب والائتلاف الوزارى.. وجاء قرارى متناسبا مع ردهم...

موافقون بالاجماع.

الطلب المستحيل

أتذكر هذه الأيام.. وأسجلها للتاريخ فى مذكراتى...

بعد تسليم البلاد.. أصبحت صورة من صور الخيال، وتقريبا لا أنام وأصبحت لا أقوى على الاحتمال.

لست أدرى كيف استسلمت هذا الاستسلام وتنازلت.. كرهت كتبى والدكتوراه وكل من دفعنى لهذا الحل.

تم رفع معنوياتى بواسطة أجهزة الدولة، فأنا الرجل الموهوب الذى جنب البلاد الهلاك.. واستطاعت هذه الأجهزة تغيير مزاجى بسرعة، فكل ما أحبه ويرضينى تحت قدمى، حتى بدأت أتأقلم على الوضع الجديد.

فكرت فى التباحث مع الدول العربية المجاورة التى يحكمها الحكام الجدد الذين دعموا بالصف الثانى العربى أو الإسرائيلى فى مزج غريب صعب التوضيح.

سافرت لبعض العواصم، الكل رحب بى، فأنا رسول السلام الذى استطاع قيادة سفينة السياسة إلى بر الأمان.

الكل رحب بى سواء فى الشام أو الخليج كلهم مثلى مستسلمون استسلاما صريحا.

بعد مأدبة العشاء التى أقامها لى أحد الأمراء.. سألته على انفراد:

– كيف حالك.. وكيف تتقبل هذا الاحتلال والاستسلام؟

– سيدى كنا محتلين منذ مئات السنين سواء من الأتراك أم الإنجليز أم غيرهم.. ما الفرق؟.. لقد تعودت شعوبنا على الاحتلال.. إنها تشعر بأنها فى ظل الاحتلال تتمتع بالسعادة.. إننا كحكام لا نتحمل مشقة أو مؤنة الطعام أو الحماية.. سأقول لك أمرا يوضح الحالة:

لدى العديد من البنين والبنات.. واحدة منهن طلبها قريب ليبرمان فلم أرفض ولكن رحبت:

– لماذا؟

– سأناسب السلطة؟!

– لديكم مثل يقول: الدنيا مصالح يا أبو صالح، شوف صالحك فين يا صالح.

ابتسمت من هذا المثل المصرى القديم.. وسكت واقتنعت

كل شىء ممكن ومباح

أصبحت المنطقة كلها تتبع نصائحى.. بل إننى أصبحت رسول السلام بين شعوب المنطقة.

وتوقيعى على كل القرارات والبيانات رمزي، ولكننى أصبحت راضيا وكل شىء راجع لكفاءتى فى الإقناع والاقتناع طبعا.

حتـى جـاء هاتف نصف الليـل المزعج الذى تعـودت عليه لدرجة من السخرية المضحكة والمبكية:

– مستر بريزدنت حلمت حلما مزعجا.

– خير يا مستر ليبرمان.

– جاءنى فى المنام...

اعتقدت أمرا جديدا يخص النبى موسـى، بعد سـيناء ومصر كلها ماذا يريد من أحلامه؟.. سكت وانتظرت...

– مستر ليبرمان تفضل تحدث.. أحلامك أوامر.

– جاءنى فى المنام أبو الأنبياء إبراهيم.

طار النوم من عينى واندهشت من الحلم الجديد.

– صحيح.

أردف بهدوء تام:

– ليس وحده.. معه إسماعيل ابنه.

– رائع حلم جميل.

– طلب منى أمرا أتمنى أن تحققه لى.

سكت وسخرت من نفسى ومنه.. ولما آلت إليه الأمور.

أردف قائلا:

– لقد قال لى: يا ليبرمان فعلا قد بنيت الكعبة أنا وإسماعيل منذ آلاف السنين.

– رائع.. وماذا حدث فى حلمك؟

– نهرنى إبراهيم متسائلا: كيف يكون هناك مكان مقدس يخصنا ولا نستعمله.

بُهت.. لم أقو على التفكير.. أو قراءة ما فى عقله وسألته:

– أوامرك يا ليبرمان (حاف من غير مستر).

حذرنى بصوت عال قائلا:

– ألا تفهم معنى مقدسة ويأتى لى حلم فى المنام.

انكمشت.. لديه كل القوة خارج البلاد وداخلها وفى المنطقة كلها.. لقد أصبحت الحياة جميلة رائعة والموقف والحلم صعب وغامض وكريه...

بهدوء جاء الرد:

– أوامرك يا سيدى الرئيس.

– أريد أن أصلى هناك قبل أن أرحل عن الدنيا.

تهلل وجهى وشعرت بانفراجة متسائلا:

– لا أفهم.. هل تحولت إلى الإسلام.

– أتفهم؟! حائط المبكى سيكون فى مكة.

شعرت أن حائطا سقط علىَّ، أو كما أن سيارة صدمتنى وقذفتنى أمتارًا بعيدة.. تماسكت ساخرا قائلا:

– فعـلا.. جميلة رائعة.. حائـط المبكى أصبح فى مكة حتى وزن الكلمات متناسـق رائـع وجميل.. أعطنـى فرصة لأجتمع بأصحاب الشأن وقد نجد حلا لأحلامك يا مستر ليبرمان.

– أرجو ألا تطير الأحلام.. بل تصبح واقعا يا ريس.

كان علـىَّ الخروج من المأزق، طلبـت الاجتماع بقادة المنطقة وفوجئـت بأنهـم فوضونى للتباحث والتفـاوض إلى آخر مدى.. جلسـت مع ليبرمـان ووضحت الخطوط الحمـراء التى لا يمكن تجاوزها.. مسـموح لهم بالصلاة على حائط المبكى طوال العام ما عدا موسم الحج والعمرة.

كانـت مباحثات مضنية.. انتهت بالموافقـة وانتصار إرادتى وتحقيق الأمل.

منابع النيل

كل ما يقلقنى هو المطالبة بحدود آمنة تحت سـيطرتهم على المنطقة.. لم أكن أتصور أبدا أن يأتى الهاتف ينادى:

– مستر بريزدنت.

لم أعد أفهم أو أعى هل أنا رئيس أم ماذا؟..

– نعم.

– أحوال أفريقيا تدهشنى.. اتفاقيات المياه ومنابعها.. وحصص الميـاه المتقاسمة مع دول حوض النيل أعـترض عليها.. لا ينفع هذا الكلام لابد من تواجد عسـكرى مصرى هناك.. هل تعجبك القلاقل فى السـودان والمخاطر المحيطة بأثيوبيا والكونغو ورواندا والحرب الأهلية.. لابد من حل سـريع جدا وسـوف أساعدك.. القوات المصرية تتقدم بسـرعة بمساعدة الصواريخ الموجهة إلى كل منابع النيل تسـيطر عليها.. وتضع نقاط أمان.. وكل هذه الأمور فى أسابيع قليلة جدا، ولقد وضعت لك خطة كاملة.

– ما اسمها؟

– مياه النيل.

– فعلا.. مياه النيل والفرات.. وإيه تانى يا مستر ليبرمان.

– هـل تمـزح.. كلامى فى السياسـة والحـرب جد الجد.. سـتخرج جيش مصر من قواعـده التى دربناه عليها فى الجنوب ويتحرك لاحتلال منابع النيل وقد وضعت القوات والصواريخ فى حالة تأهب.

– طبعا يا مستر سوبرمان.

لم آبه به.. فلو تورطت فى حرب، ستكلف الشعب الكثير... والغريـب أن دول الجنوب ومنابع النيل استسـلمت فى أيام

قليلة بدون معارك تذكر.. وكأنها سعيدة بوصول مصر وإسرائيل لمنابع النيل.

سخر منى ليبرمان لأننى لم أفهم الخطة ولم أنفذها بسرعة فاعتذرت له وقد أصبت بإحباط حاد.

* * *

الموت

لم تعد الحياة أو دورى فيها ذا أهمية.. وبرغم براعتى فى التفاوض إلا إننى فى قرارة نفسى أشعر أننى أهنتها ولم يعد أى دور بالنسبة لى يجذبنى برغم براعتى فى التفاوض.

وصلت المرارة إلى أقصى مدى ولم تعد الحياة لها معنى مع هذا الرجل الذى تخطى الثمانين من العمر.

ضاعت كل الأيام والسنوات فى البحث عن السلام، لماذا يتنازل للسلام طالما بالحرب يأخذ كل شىء؟ هل كان الأجدى القتال وعدم التنازل ورفع الروح الوطنية والانتماء القومى...

لا أعتقد.. لقد وصل السلام أى الاستسلام إلى كل جزء من كيان الأمة.. وأكيد ما قمت به هو الصواب.. فالحياة ما زالت تنبض فى هذا الشعب وسيأتى يوم الانتصار - أكيد - قريبا.

تمنيت أن تنتهى هذه الأيام المرة.. برحيله أو رحيلى فلقد سئمت أوامره المرة.. وحياتى التفاوضية لآخر مدى.

لم تمض على أمنيتى ساعات قليلة.. وكأن أبواب السماء مفتوحة..

مات ليبرمان...

ليبرمان الروسى.. مولود فى روسيا.. تركها مهاجرا إلى أرض غيره يقيم فيها هو وأهله وناسه.. وينكرون الحق... إن هذا العالم ظالم.. ويوافق على الظلم طالما هناك مصالح..

هكذا عاش ليبرمان فى إسرائيل.. نازع الحق.. ناصر الظلم.. سلب الأرض.. واستمعت أن له وصية وسط الملايين من المحبين المؤمنين به...

جنازته فى القدس وبدلا من أن يدفن فى مسقط رأسه فى روسيا اختار أن يدفن فى أرض موسى الذى أتاه فى أحلامه..

سيدفن فى مصر...

نقل جثمانه من القدس إلى القاهرة..

وحسب وصيته..

يدفن فى غرفة الملك خوفو بالهرم الأكبر..

تحققت أحلامه وآماله وآخر وصية له فى غرفة خوفو ملك مصر.

لم يطبع كتابى وأتشرف بقراءته من قرائى وتطورات أحداث مصر لنشعر بلعنة تحف بها، ومستقبلها الغامض يصر على أن يكون غامضا..

قفز على السلطة تنظيم الإخوان، وهمه هو التمكن من الدولة وأجهزتها ومؤسساتها..

تصرف التنظيم بمنطق المصلحة السياسية. إن كثير من الحروب قامت على خطاب دينى مؤثر، استعملت النتائج، فأوهمت العالم أنها ثورة، وأنها قادت هذه الثورة، وأن الشرعية لها صندوق الانتخابات وبالتالى يحق لها الحكم والدستور والتمكين فى مؤسسات الدولة، لم يكن للحكم الدينى سوى خطاب مؤثر عن مآثر الخلفاء الراشدين وزهدهم فى الحياة والحكم.

هذه الأمور لا تدار بها دولة فى القرن الواحد والعشرين، إن مناسبة ٢٥ يناير فى مظاهراتها أفرزت كثير من التطورات، محاكمة بورسعيد تزامن فى ترتيب تآمرى يوم ٢٦ يناير، لتنقلب الدولة وتخلف ضحايا ٧٠ فردا.. مشاعر الألم أصبحت حية وأصبح الناس فى حيرة إلى من يلجأون هل للجيش أو الانقلاب أو تغيير الحكم بهدوء.

من أخطاء ٢٥ يناير:

– إن شبابها فصلوا أنفسهم عن الأجيال التى قبلهم واعتقدوا فعلا أنهم أسقطوا النظام، والنظام كان ساقطا برؤية المراقبين والمتابعين بل إن عدم سقوطه هى المعجزة الصعبة.

– إن الجيش بكل ما يحيط به من تساؤلات عن نشاطه وهويته وانتمائه، عاش فترة طويلة يعيش على دخل عال ومزايا عينية هائلة، ومعاش مريح ونشاط اقتصادى ومالى كثيف سواء فى الحكم المحلى أم أراضى الدولة أم عمولات أو حتى مميزات نفعية مرضية، مصلحة المجلس العسكرى أن تظل المؤسسة العسكرية قوية ممنهجة تعمل لصالح نفسها ولأبنائها وواثقة من قدراتها على الحركة وتدخلها فى الحكم، أو يستعين بها الحكم فى الوقت المناسب.

– شباب ٢٥ يناير لم يغير من الخطة.. تظاهر، رفع أعلام، أناشيد، إلقاء حجارة على الأمن والاعتصام فى الخيام، لم يكن تغيير النظام ولكن إسقاط النظام وإحياء قوانين الفوضى من بلطجة وسرقة وتعد على حدود الدولة والتصرف بذاتية وأنانية واتهام الدولة لأنها تسرق قوت الشعب، وعلى الشعب أن يأخذ حقه بيده، فسيطر على الشارع والأرض الزراعية والمحليات

والميانى، رجال مصر لم يقدروا أن شباب ٢٥ يناير هم القوة التى لن يتنازلوا عنها وهم يحلمون بقلب نظام الدولة، حسبت أنهم الأغلبية الأكثر كثافة وعددا وحركة ونشاطا وتهورا..

صحيح هذا التصور ولكن السياسة ليست بهذه الحسابات، سياسة الدولة مصالح، قد يستطيع التنظيم الحاكم تهيئة الجماهير لمشاعر دينية فياضة ولكن لن يستطيع حل المشاكل الاقتصادية والصحية والعملية لشباب الوطن. إن لغة الخطاب الدينى سقطت مع الضربات الموجهة للفيس بوك ونكات الشباب الصغير، إن أول مواجهة بين النظام الحاكم وإسرائيل كشفت النقاط التالية:

– لايملكون القدرة السياسية للمناورة مع أول ضربات إسرائيل لإخوانهم فى حماس.

– إن سلاح حماس عبارة عن صواريخ صبيانية لا تحرر أرض أو تقلب ميزان قوى.

– التنظيم الحاكم أسرع بالاستنجاد بأمريكا وأوباما، وهنا كانت فرصة فرض الشروط والموافقة عليها.

– سقط الإخوان فى أول مظاهر القوة بالاعتراف بمعاهدة السلام، وحق إسرائيل وتأكيد تثبيت معاهدة السلام المهينة لتاريخ مصر.

– أخطأ الإخوان فـى تعبيرهم أنهم منظمة عالمية ذات كيان دولى وليس لهم فى مصر وتاريخها حضور إيجابى.

– قـادة الإخوان يفتقدون للرؤية السياسـية والحنكة والمهارة والمناورة بل من السهل كشفهم مع أول ضربة.

– سـقط السـادات حينما وافق لفتح قناة السـويس بسحب الجيش المصرى من سـيناء، ثـم محاولاته الدائمة لإنهاء الحرب المعلنة بشـروط إسـرائيل، وصل الأمر أن الشعب المصرى أصبح موقنا أن سـيناء ستصبح فى يد الفلسطينيين أو إسرائيل، بل إن الشعب المصرى أصبح يفكر فى الإهانة وإنقاذ نفسه.

– فـى شمال البـلاد (سـيناء) وكيفية الدفـاع عنها بجيش ضعيف.

– فى جنوب البلاد: السـودان المفكك وسـدود أثيوبيا ومياه النيل المهددة بقطعها عنه.

الشـعب المصرى أصبح يتمنى حكما جديدا فيه قيمة حقيقية للإنسـان المصرى الذى يطمئن لمسـتقبله وحياتـه اليومية، التى أصبـح يفتقدها فى حكومة ضعيفة وسـلطة أمنية منتهية وحياة سياسية منحرفة وفاسدة، وصحافة وإعلام يهمهم فى المقام الأول السبوبة المادية تنتمى لمدرسة التلفيق والنفاق.

يشعر العالم بحزن على فقدان مصر التى ضاع مصيرها وهرب أبناؤها وانهزم جيلها كما انهزمت الأجيال السابقة. إن ثورات مصر المستمرة هى روح شباب تطالب بالتغيير للأفضل لصنع كيان متحضر من ديمقراطية حقيقية وحرية يساندها القانون والنظام، ولقمة عيش بكرامة وعزة نفس، ورؤيا علمية ثقافية واضحة سليمة محترمة من جميع الفئات، لايريد أن ينقسم المجتمع بين مسيحيين ومسلمين، ورجال ونساء، وعمال وفلاحين، ورجال أعمال ومثقفين، ومتدينين ينكرون حقوق بعضهم بعضا.

فالثورة لم تولد، وولادتها قيصرية فيها الكثير من دماء الضحايا.

٣٠ يونيو

٢٥ يناير ١٩٥٢ أقدم المتظاهرين ومنهم الإخوان على حرق القاهرة غضبا من مذبحة الإسماعيلية حيث ترك وزير الداخلية فؤاد سراج الدين قوة شرطة صغيرة تواجه قوة إنجلترا فى القناة، واصطحب الملك فاروق الجيش للاحتفال بمولد ابنه أحمد فؤاد كولىّ للعهد.. غضب الشارع فأحرق ممتلكات اليهود والأجانب كما غضب من هزيمة حرب ٤٨ وفجر حارة اليهود ليموت ٢٠ يهوديا ويدمر الحارة، هكذا يكون الغضب.

الغضب الذى يؤدى للثورة، فى صورة انقلاب عسكرى، كما حدث فى عام ٥٢ حدث فى ٢٠١١ وحدث فى ٢٠١٣.

خطأ يؤدى إلى خطأ ومن ثم إلى أخطاء وأخطاء

اعتقـد الملك أنه الحاكم الدائم وأن الشـعب المصرى طوع أمره، لولا بعض الأفراد من الشعب والجيش ضده، واعتقد أنه بتدخله فى تغيـير الحكومات أنه يملك زمام الأمور فقامت قوة الجيش بحركة الضباط التى تحولت إلى ثورة مصرية شمولية عامة، الثورات تتحول إلى الأفضل بالحكم الديمقراطى النابه الغاية الوسيل الوحيد لتداول السلطة وتعدد الاتجاهات وفصل السلطات وكلمات وعبارات أصبح يدركها افراد الشعب وتحمل التقدير الكبير.

٥٢ مرتبطـة بجمال عبد الناصـر وتحولت بفكر شمولى أنجز الكثير وانهزم فى ٦٧.

استولى السادات على مقدرات البلاد بثورة تصحيح بأن ألغى الدستور وقدم دسـتور جديد ألغى فيه الفكر القومى العربى وأكد فيه المبادئ الدينية أسـاس الحكم؛ فصنع توجه جديد منذ ثورة ١٩ والدولة المدنية العلمانية تتحول عام ٧١ على يد السادات إلى دولة دينية الغرض منها إلغاء الفكر الاشتراكى والعودة للأيدلوجية الدينية المغطاه بالشرعية الدينية.

هكـذا تحولت مصر من القيادة العربية إلى القيادة الإسـلامية وأصبحـت تنمـو من حرب الجهـاد فى أفغانسـتان ضد الممثل الشيوعى الكافر، لتنبثق منها حركات الإسلام السياسى العالمى.

هذا التوجه بالرغم من أنه قتل السادات ولكنه - بمباركة أمريكية - استمر على أرض الواقع ينمو؛ لأنه مخترق من المخابرات الأمريكية.

١١ سـبتمبر سـيذكرها التاريخ انها كانت معروفة مسبقا من السى آى إيه ولكنها استعملتها لآخر مدى للفائدة الكبرى.

لقد تم احتلال أفغانستان والعراق والسيطره على دول الخليج المهمـة وحيادة مصرية كاملة باتفاقيات السـلام المهنية التى هى خط أحمر على أى رئيس مصرى يفكر فى تغييرها.

عـاش مبارك كحاكم يدير ظهره للمسـتقبل الديمقراطى لثقته التامـة أن الديمقراطية لا تعيش مع شـعب جاهل تسـيطر عليه العواطف قبل المصـالح، وأن مصر معرضه للخطر وعليه أن يقود المركب وسـط المحيط دون أمواج متقلبة ويحاول أن يبعد الحكم عـن أى صراعات فى المنطقـة ومصر دولة محورية، أحداث ٣٠ يونيـو تصـدرت العالم كلـه؛ لأن الدولة المصرية أصعب شـىء لا تدركـه أنها من أهم دول العالم ليـس بحضارتها القديمة فقط ولكن لأنها دولة محورية مؤثرة.

حينما سقط مبارك لأنه شاخ ولفكرة التوريث الساذجة بتزوير الانتخابات وفساد رجال الدولة وانحراف رجال الشرطة؛ أدى لسخط شعبى متصاعد فى ٢٥ يناير كان من الممكن تداركه لو أعلن ببساطة:

١ – عدم ترشيح نفسه.

٢ – إعادة الانتخابات المزورة.

٣ – عدم ممارسة ابنه للعمل السياسى.

لتقبلته الجماهير الثائرة الحل وخاصة أنه قد شاخ هو وحكمه، وأن دماء جديدة شابة ستقود الدولة للإصلاح وتقوم الشرطة أو رجال الحكم الفاسدين.

أجل، حتى تحرك الجيش وكانت حركته هى حركة ليس هناك بديلاً عنها بضغوط خارجية لمحورية مصر... وسلام الشرق الأوسط والخطة الأمريكية لشرق أوسط جديد تابع وليس مستقل، مزدهر، قادر على المنافسة العلمية والصناعية والثقافية مع القوى المسيطره والمهنية على العالم حتى لا يمثل النظام السياسى والاقتصادى العالمى...

أخطاء المجلس العسكرى

١ – الفكر الشمولى العسكرى المبنى على السمع والطاعة لا يقدر فيه تعدد الثقافة والحرية والرأى والرأى الآخر والديمقراطية الخالصة

بمعانيها؛ فترك الفكر الشمولى آخر زمام الفكر والقيادة... وسلمها ببساطة سواء لفقهاء دستورين شموليين (إخوان).

٢ - وافق على حزب شمولى (الحرية والعدالة) منبثق من جمعية مدنية دينية (الإخوان المسلمين) على أن يكون فى الساحة. مع إلغاء الحزب الوطنى الحاكم، أى الغى حكم فاسد بحكم دينى مشكوك فى أسلوبه الدموى منذ اغتيال النقراشى ومحاولة اغتيال جمال عبد الناصر إلى اغتيال السادات ومحاولة اغتيال مبارك وتدمير الكثير من المنشآت فكر دينى ارتهن الاغتيال والإرهاب فكان الشعب المصرى البسيط مستعد أن يقبل بحكم دينى صالح للصالح العام ويتردد على الحكم الدموى الكثير من المرات.

٣ - كل المرشحين للرئاسة كانت لهم صلاحيات هامة ولكن المرشح الوحيد الذى خلفه حركة منظمة قوية ولديها الإمكانيات المادية ومتصلة بالولايات المتحدة هم الإخوان.
أى ازدواجية الانتماء، الجيش المصرى يعتبر تسليحه وتدريبه أمريكى وتوجهه الاستراتيجى أمريكى.
والحزب الدينى اتصل بأمريكا وأصبح انتماء الاثنين للأمريكان هو انتماء طبيعى من أجل المصلحة المشتركة.
والصدام بينهم فى يوم من الأيام مؤكدا...

٤ – سلمت السلطة العسكرية إلى السلطة الدينية الحكم دون أن يكون هناك دستور يفصل بين السلطات، وهكذا أخطأ العسكر بأن يترك للحكام الجدد الحبل على الغارب، قال كارتر رئيس أمريكا وهو يغادر مصر: لأول مرة يحكم رئيس جمهورية بدون دستور، تكبر أعضاء مجلس الشعب ورفضوا القسم على الدستور يقسموا فى مظاهرة علنية أننى أقسم بشرع الله.

٥ – أن أبسط شيء فى القرون الوسطى هو الحكم الإلهى وهكذا تدار الشعوب فى العصور القديمة وتتحكم فيها قوى الفرد ومن يسطونة بفكر فى توريث ابنه للحكم.

ولم يلتفت الإخوان كيف كانت الفتنة وقتل الخلفاء وسقوط الدولة الأموية وقتل حكامها وسقوط الدولة العباسية حتى الدولة العثمانية واستبدالها بالعلمانية. كانت مصر تعيش أجواء العصور الوسطى وتحول الثورات للديمقراطية كالثورة الفرنسية كانت تداعب فكر الكثير من المثقفين.

٦ – كان هم العسكر، السيطرة كقوة حامية لامساس بها والخروج الآمن، وأن تكون المؤسسة العسكرية فاعلة متداخلة وقت اللزوم لحماية الجماهير والمكتسبات وحماية الحدود إلخ.... كانت لهم مزايا مؤثرة فى حياتهم الاقتصادية والتمويل

المادى والمزايا المالية وهم لا يريدون المساس بها. قوة تريد أن تكون معبرة ومؤثرة ومتداخلة ولا مساس بها. تخضع لرئيس الجمهورية وإن كان عسكريا سيكون من داخلهم يحافظ عليهم ويحموه، وإن كان مدنيا يعمل لهم ألف حساب.

٧ – انتخابات رئاسة الجمهورية كانت بين أفراد مستقلين ونظام وجماعة منظمة قوية تقف وراء مرشح سواء رفض فنهاك مساعده أو بديل وهكذا انتصر هذا البديل مع أنه أقلهم كفاءة وهناك مقولة سيقدرها التاريخ: أن الانتخابات تلاعب بها من أجل وصول مرشح الإخوان أما لإعطائهم فرصة حتى ولو كانت بالفشل أو تجنب الدولة الصدام المسلح.
على أنه يجب أن نقتنع أن حكم الإخوان خطط له ليسيطر على مقدرات البلاد لعشرات السنوات وأن مايهمه ليس حكم الإقليم المصرى ولكن الحركة العالمية الإسلامية وكأنهم يستبدلون فشلهم أو هزيمتهم من إسرائيل بالدعوة.
لحكم دينى آخر من الممكن الانتصار فيه بحلو الكلام والخيال...
وحيث إن مبارك كان ضد مبارك، مرسى أيضا كان ضد مرسى لتجربة فاشلة بكل المقاييس خلال عام واحد أبرزها:

١ – لم يكن صاحب فكر ديمقراطي بالتعاون مع خصومه والجلوس إليهم، ولم يجلس مع منافسه الذى خلفه أو كان يسبقه للبحث فى قضايا الوطن، فى تعالى وتأكيد أنه من الفلول المهزومة وأنه اللص الذى يطالبه القضاء.

٢ – النشاط الأساسى له، الجماعة التى ينتمى إليها ولم ينكر ذلك فى تحد صارخ لكى يكون رئيسا لكل المصريين فى حياد كامل مما أصابهم بالغرور وأصاب الباقى بالإحباط والتربص به.

٣ – الإعلان الدستورى، حقق مقولة من يحكم يملك السلطة ويضع دستورها والديمقراطية هى القوى السياسية المختلفة تضع دستورا توافقيا لجميع الأطياف، وبالتالى قدم طريقة للحكم تتناسب مع فلسفة الإخوان كما وضع دستور ٢٣ ليبرالى لخدمة الملك والوفد و٥٤ لخدمة مجلس قيادة الثورة وثوبهم القومى والاشتراكى و٧١ للانقلاب على الفكر القومى لاستبداله بالدين وأخيرا حكم الجماعة فى دستور ٢٠١٣.
وهنا تبرز مشكلة الحكم التى لم ينتبه لها وأخطأ أول الأخطاء البارزة التى قضت على تسلطه وجماعته على الحكم.

٤ – رؤيته وتوجهه الدينى جعله، يعادى أنظمة الحكم الخارجى بدأ بدول الخليج ثم فارس ثم القومى المتمثل فى

سوريا، وقطع العلامة معها، مع أن دول الخليج لم تقطع ومصر وسوريا دولة الوحدة، وكأنه يضرب القوميين في مقتل بغض النظر عن تسلط الحكم السورى والقتال الداخلى مما يؤكد فشله التام فى إدارة الصراع اللوبى، الفارسى، القومى التقدمى.

٥ - السيطرة التامة لدولة قطر على الإعلام وبالتالى مواجهته مع رجال الإعلام فى مصر، ونسى أنهم أقدر من الجزيرة وأن السيطرة عليهم ليس بوزير إعلام تابع ولكن بميثاق شرف، يمنع التهجم على ذاته أو ازوراء الحاكم فى تأكيد تام أن مصر ليست كالدول الغريبة التى يترك الحاكم فيها الفرد ليتحول الإنسان عادى؛ فمازالت القبلية والعادات القديمة مسيطرة على فكر ورؤيا الناس، أما الديمقراطية الغربية مازالت صعبة وبالتالى الهجوم الشرس عليه وعلى جماعته أو النفاق لها من آخرين هو من أكثر الأمور حساسية فى المواجهة الإعلامية التى انتصر فيها الإعلام فى نهاية المطاف، وأثبت الاعلام أنه أقوى من القوى الدينية المؤثرة بكل ماتمتلك..

٦ - حينما تدخل الجيش فى المظاهرات قبل الاستفتاء على الدستور لم يعر اهتماماً وحينما تدخل الجيش فى بيانه الثانى

لم يتحرك لمواجهته مكتفيا بأنه القائد الأعلى ونسى أن مبارك أيضا كان القائد الأعلى وعسكريا، ولكنه عزل وسُجن.

٧ – لم تكن المواجهة مع الإعلام والجيش هى أول أخطائه ولكن سيطرة الجماعة على بعض القوى الأمنية فى اعتقاد أنهم يسيطرون على الأمن الداخلى، وكان الفخ الذى لم ينتبه له أن مكانة الضابط الأمنى هى العسكرى وعليه أن يقترب منه بالتقدير المناسب وعدم زجه فى مواجهات مع قادته السابقين.

٨ – أهم شىء القضاء ولم يتعظ ويفهم كلامهم فى كل مناسبة أن الدنيا تدور ومن يملك اليوم لا يملك غدا، وأن القضاء أقوى فى الدول الديمقراطية من رئيس الجمهورية، وعليه أن يفصل بين السلطات ويرضخ لرأى القضاء ولكن استبدال اشخاص وتعيين وزراء من موالين له، سيصل به فى النهاية لصدام سيكون هم الفائزين فيه.

٩ – جيل الشباب المؤثر فى قضايا البلاد نجح عبد الناصر فى التواصل معه، وأقنعه السادات أنهم أبناؤه وألهاه مبارك فى المكاسب المالية على حساب الثقافة الديمقراطية أما هو فكان نصيبه أن يقيم الدولة الدينية التى أساسها الخلافة

الإسلامية والجهاد، ونسى أن الامور مختلفة مع شباب يؤمن بالكمبيوتر والتواصل معا فى إهمال ما هو قديم أو ما يمثله..

لم يعبأ الا للحكم وتعيين محافظين من أحلافه، أسقط كل مصداقية وعجل بنهايته خطابان من أسوء مايمكن أن يخطبهم رئيس دولة ديمقراطية لابد له أن يدرك سيادة القانون وجماهير الشعب الغاضبة التى تأمل الأفضل لها ولأبنائها.

إن الانقلاب العسكرى الذى ينحاز للجماهير ليس عيبا، إن وصف الثورات فى ٥٢، و٢٥ يناير و٣٠ يونيو به الكثير من الانفعال العاطفى، تنحاز القوات العسكرية للجماهير الغاضبة أو الثائرة لتحقيق أهدافها ليس إلا انسجام وطنى يبحث عن الصالح العام.

إن العالم الثالث يلجأ للعسكر حتى فى اليونان فترة انتقالية عسكرية وتركيا سلمت بعدها للساسة الحكم، وفرانكو بعد الحرب الأهلية فى أسبانيا سلم الدولة للحكم الديمقراطى بعد حكم عسكرى ديكتاتورى.

سيذكر التاريخ مجهود الشرفاء من أجل تأكيد هذا الحق.

الفهرس

الصفحة

مقدمة ٣
أسئلة يسألها المواطن البسيط ٢٥
إسرائيل الكوبرا ٣٢
صعودى للقمة ٤٠
رئيس الجمهورية ٤٣
ليبرمان ٤٤
الرأى العام العالمى ٤٥
رد الفعل ٤٦
فتح لى الباب آمرا ٤٨
الإقناع ٤٩
التوطين – رد الفعل المتوقع ٥٠
الحل الصعب ٥٣
الاستقالة وسيناء ٥٤
الجشع التام ٥٧

الصفحة

صاروخ ليبرمان ٥٨
الطلب المستحيل ٦٠
منابع النيل ٦٤
الموت ٦٦
مات ليبرمان – سيدفن فى مصر ٦٧
من أخطاء ٢٥ يناير ٦٩
٣٠ يونيو ٧٢

رقم الإيداع	٢٠١٣ / ١٥٧٢٢
الترقيم الدولى	ISBN 978 - 977 - 02 - 7856 - 7

١ /٢٠١٣/٥٩
طبع بمطابع دار المعارف